قنديل أم هاشم المفقود

عدي الزعبي

قنديل أم هاشم المفقود

سلسلة شهادات سورية -19- قنديل أم هاشم المفقود
عدي الزعبي

الإخراج الفني: فايز علام
لوحة الغلاف: فرنشيسكو غويا (Francisco de Goya)
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2016

ISBN: 978-9953-583-74-7

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961+
فاكس: 750053 1 961+
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

هذا الكتاب شهادة جديدة تُضاف إلى الكتب التي تصدرها دار «بيت المواطن» بالتعاون مع «الرابطة السورية للمواطنة» في سلسلة «شهادات سورية» عن سنوات الثورة والحرب في سورية؛ نأمل أن تلقي مزيداً من الضوء على هذه السنوات وعلى أثرنا، وتأثرنا، بها.

وزّعتُ نصوص هذا الكتاب على قسمين: الأول عن المنفى، والثاني عن الثورة؛ ورتّبتها من الأحدث إلى الأقدم.

كل النصوص نُشرت سابقاً، عدا النص الأول الذي كُتب خصيصاً لمشروع «شهادات سورية»، وهو الأحدث زمنياً أيضاً؛ يحمل الكتاب عنوان هذا النص.

أجريت بعض التعديلات البسيطة على النصوص، كما يفعل الكتّاب عادةً عندما يجمعون مقالاتهم في كتاب، أو عندما يصدرون طبعة جديدة لكتاب نافد.

أهدي هذا الكتاب إلى صديقين أمدّاني بالقوة اللازمة لمواجهة الأيام العصيبة، وزوّداني بأمل لا ينضب، وبشجاعة كنت، وما زلت، بحاجة إليها:

إلى عمار حمودة ومحمد العطار!

عدي

القسم الأول:

المنفى

قنديل أم هاشم المفقود

(1)

على باب الخمّارة، ثلاثة سكارى يقفون خلف رجل الأمن صارخين: «هذا الشاذّ لا يعرف كيف يصنع سندويشة برغر إنكليزية. فليرجع إلى الشرق الأوسط».

يُخفض العامل التركي رأسه، متجاهلاً الإهانة. يلتفت أحد السكارى إليّ. أبتسم له. يخبرني أنه يكره المسلمين؛ «على أولئك الهمج العودة إلى بلدانهم!». يقول صديقه إننا نحن الأوروبيين أكثر تحضّراً وتقدماً. يسألونني عن أحوال إسبانيا، مفترضين أنني إسباني. أتمتم بشيء ما عن الطقس، ثم أتجه إلى المطعم، حيث أطلب سندويشة برغر وكولا. يسألني العامل التركي عن أصلي وفصلي؛ أجيب بأنني سوري.

«آه، لم أكن لأحزر. هناك الكثير منكم في تركيا. معظمهم شحاذون لا يعملون ويسيئون لتركيا. لماذا لا يعودون إلى سورية؟».

أبتسم مرةً أخرى. أدفع الحساب صامتاً وأغادر شارع «أمير ويلز»، شارع البارات والملاهي الليلية في مدينة «نوريتش»، حيث أحضّر رسالة الدكتوراه في فلسفة اللغة.

على مدى سنوات، اعتدت أن يفترض الناس أنني أنتمي إلى مجموعة بشرية مختلفة «أرقى» من تلك التي تعود جذوري إليها. ابتدأ الأمر في دمشق: «مو مبيّن عليك حوراني!»، يقول الدمشقيون. لاحقاً، في بيروت، وفي اسطنبول الآن، «مو مبيّن عليك سوري!». في بريطانيا، «مو مبيّن عليك مسلم!».

تحاول الشرطة أن تقنع السكارى بمغادرة المكان. أحدهم يبكي مستلقياً على الأرض، لاعناً المسلمين، صارخاً بأسراره: صديقته هجرته وتركت المدينة ذاهبةً إلى لندن، حيث وجدت عملاً أفضل بمرتّب جيد.

(2)

ولدتُ لأم مسيحية وأب مسلم. لم أدرك ذلك حتى دخلت المدرسة. حين يخرج المسيحيون إلى قاعة مختلفة في حصة التربية الدينية، أبقى مع المسلمين وفي داخلي بعض الشك. تقول أمي: لا فارق بين الدينين؛ يرفض الأطفال هذا بعنف: «نحن مسلمون وهم مسيحيون: الفارق واضح». عندما كنت أحاول في مراهقتي أن أدخل في إحدى الجماعتين، يقولون لي إنني حقيقةً سأبقى خارج التمييزات: لست واحداً منا ما دام أحد والديك ينتمي إلى الجماعة الأخرى.

في بريطانيا، أجبرني الرأي العام على الدخول في جماعة المسلمين. لم أرتبك كثيراً هذه المرة. الكمّ الهائل من المغالطات التي تنتشر في الغرب عن المسلمين، وشعورك الدائم بأنك متهم، أو غير مفهوم، لأنك من هناك، يجبرانك على الدفاع عنهم.

ولكن ليس من السهل الدفاع عن المسلمين. في الجامعة، لم أكن على علاقة طيبة مع المتديّنين منهم. ابتدأت القصة في احتجاج لهم في ساحة الجامعة. كانت إدارة الجامعة قد قررت هدم مبنيَين قديمين،

تمهيداً لتشييد بناءين حديثين أكبر مكانهما. في أحد هذين المبنيَين يشغل المسلمون عدة قاعات للصلاة والاجتماع وتدريس اللغة العربية. طلب المسلمون قاعة أخرى تعويضاً لهم عن القاعات التي سيخسرونها. رفضت الجامعة، لأنها بالأصل تعاني شحّاً في القاعات، واقترحت أن ينضم المسلمون إلى قاعة الأديان التي يتشاركها كل المؤمنين من كل الأديان. رفضوا بحدة، وتجمعوا في الساحة صارخين بأنهم يتعرضون للتمييز.

قال بعضهم إنهم لن يشاركوا الهندوس القاعة نفسها، هذا غير مقبول: هؤلاء يعبدون البقر. صرخ بعضهم إنه حتى الشواذ لهم قاعة مستقلة. «أي انحلال وفسوق هذا؟ لم لا يكون للمجرمين ولمغتصبي الأطفال قاعة؟ ألا يعبد الشواذ أحد الحيوانات؟ الخنازير ربما؟».

دار بيننا نقاش سريع، انتهى بسرعة وغضب.

في الحديقة، حيث جلست لأشرب قهوتي، يسخر بعض الطلاب من المسلمين: «لم لا يعودون إلى أفغانستان جميعهم؟ كل أنواع التعليم لا تنفع مع أمثال بن لادن!».

(3)

لا يوجد حرف العين في اللغات الأوروبية. تحولتُ فجأةً من عدي إلى «أودي» أو «أوداي».

بعد سنتين أو ثلاث، اعتدتُ على الاسمين الجديدين. أحياناً، عندما يناديني بعض العرب بـ «عدي»، أشعر بالحنين.

في سنتي الدراسية الأولى، أصرّ الفلسطيني الذي قابلته في مقهى الجامعة على مناداتي بـ«أبو صدّام». منذ سنوات مراهقتي، يسألني الناس عن محبة عائلتي للرئيس العراقي. أشرح لهم أنني ولدت عام

1981، أي قبل أن يتحوّل الاسم إلى ماركة سياسية؛ وأنني لا أحب، ولو من باب الهزل، أن يرتبط اسمي باسم طاغية سفاح.

تقول صديقةٌ إسبانية إنني محظوظ لأن اسمي لا يحمل أية شبهة إسلامية للأوروبيين.

يتعلّم الغريب تدريجياً أن يترك مسافةً بينه وبين اسمه.

«عينينا هنّي أسامينا»، تقول فيروز.

(4)

«أخي نحنا مو مثقفين متلك، أنت الله يتمّ عليك. درست ببريطانيا».

«ليك، هالحكي الفاضي يلي تعلّمتو برا ما بيمشي حالو عنا. هون الناس ما بتفهم».

« لكْ يا عدي، لكْ يا عدي. أنت ما عم تقدّر. بدك تضل ساكت ليكمل حديثو. خلص، عميقول النسوان ناقصات عقل ودين. خليك ساكت وسماع، هاد رأيو. شو ما تعلّمت ببريطانيا تحترم كل الآراء؟».

«بعدين تعا لهون، من وين جاب أبوك كل هالمصاري لتطلع تدرس ببريطانيا؟».

«آسفين البيت مو قدّ المقام. والله ما توقعنا يزورنا حدا بعنتاب. آسفين كتير. منعرف ببريطانيا البيوت مرتبة، مو متل عنا بسورية وبتركيا».

«ليك، هدول مو متلنا أنا وياك. يعني واحد بعمرو ما طلع برا حوران، شو بدك يكون مستوى تفكيرو؟».

«والله ما بعرف شو قلك يا أبو العيد. أنت تغيّرت كتير عالسفر. لا عمتحكي مع حدا ولا عمترد عالإيميلات. شو صرلك؟».

«إيه يعني أنا ما صحّلي متلك سافر وشوف الدنيا. يمكن ضل فهمي محدود وعلى قدو. بس ما يصير هيك يحكي معي رفيقك ويتمسخر عليّ، ما بيصير يا عدي».

«يعني ما نمت مع بنت شكل كل أسبوع؟ كزّاااب...».

«شو يا كرّ؟ صرت منفتح ببريطانيا وبتقبل الكل حتى المنايك؟ لك تضرب أنت والانفتاح تبعك».

«هلق بدك تقنعني أنو ما بيكرهونا؟».

«مقالاتك معقولة لأنك درست برا، وتعلّمت كيف تفكر وتحكي وتشتغل. مو متل هالحَوَش يلي عنا».

(5)

في السيارة المتجهة إلى مكان مجهول أحاول أن أشعر بالخوف، ولكن دون جدوى. أمزح مع المرأة التي تقود السيارة: «هل سنأكل هناك؟ أنا جائع جداً. أريد «فيش أند شيبس». أعتقد أنكم تعرفون أفضل المحلات للحصول عليها. أليس كذلك؟ ألا تعرفون كل شيء؟».

تضحك بصدق، وبمسحة من التوتر.

قبل يومين، تلقيت اتصالاً هاتفياً من رقم غريب. قال المتصل إنه من المخابرات البريطانية، ويريد أن يلتقي بي. أخبرته أن الشرطة المحلية قد زارتني. فوجئ الرجل، إلا أنه سرعان ما أكّد لي أنهما فرعان مختلفان. فكرت في أن أقول إنني أفهم ذلك، إذ إن المخابرات المركزية الأميركية (سي. أي. إيه) دائماً تصطدم مع الأمن الفيدرالي (اف. بي. آي) في أفلام الأكشن الأمريكية. ولكنني لم أقل شيئاً؛ لا أعتقد أن الرجل ستعجبه مزحتي. أخبرني مباشرةً أن الأمر يتعلّق بزيارتي لحلب الشهر الماضي، أي في أيار 2013. حاولتُ أن أفهم إن كان سيعتقلني. لم

يجب مباشرةً. قال إنه أمر روتيني. «كن جاهزاً على باب بنايتك بجانب «تيسكو» الساعة الرابعة بعد غد».

«أين سنذهب؟».

«إلى مكان نعرفه نحن. لا تخف!».

أنهى المكالمة شاكراً إياي على تفهّمي.

وصلنا إلى فندق فخم خارج المدينة، بعد جولة بدت لي طويلة جداً، حيث كانت موظفة الاستقبال بانتظارنا. أخذ «جون» المفتاح واتجهنا إلى غرفة اجتماعات مجهزة لنا.

كان الرجل مهذباً وودوداً. سألني عن وضعي المادي وعلاقاتي العاطفية وعن أصدقائي المقربين وغير المقربين، إضافة إلى آرائي السياسية والدينية والاجتماعية. أجبت عن معظم الأمور بصدق، باستثناء بعض الأسئلة عن الأصدقاء التي رفضت الإجابة عنها. احتدّ فقط عندما عارضته في قوله إن المخابرات البريطانية لها تاريخ طويل في النضال من أجل الحرية في الشرق الأوسط. ضحك بعد جدل قصير، وشرح لي أنه غير معنيّ بالتاريخ في الحقيقة، كل ما يهمّه هو الحفاظ على أمن بريطانيا اليوم. في النهاية، أوضح لي أنهم لا يشكّون بي، ولكنهم يخشون من الإسلاميين البريطانيين العائدين من سورية. قلت له إنني بصراحة أتعاطف معه، وإنني ضد وجود مثل هؤلاء على الأراضي السورية التي تسيطر عليها المعارضة.

قبل أن ينهي المقابلة، طلب مني أن أتصل به إن احتجت إلى أي مساعدة. رفضتُ بتهذيب. قال إنه سيتصل بي إن احتاجوا إلى أية معلومات عن المعارضة السورية. رفضتُ مرةً أخرى. ضحك بتحفّظ، قائلاً إنهم يستطيعون الوصول إليّ إن أرادوا على أية حال، أينما كنت.

أخبرت الجامعة بما حدث. انزعجوا بشدة. أخبروني أن المخابرات

ممنوعة من الاتصال بالطلاب دون إذن الجامعة التي يدرسون فيها؛ ولكن المخابرات لا تبالي بمثل هذه المواضعات أحياناً، خصوصاً مع السوريين.

على الطريق إلى الفندق، سألت الرجل إن كان استجوابي بهذه الطريقة قانونياً.

أجاب بلا مبالاة وبتلقائية: «لا أعرف. لا أعتقد أنه قانوني تماماً. على أية حال، ليس هذا بالأمر الهام. الأمن الوطني أعلى من كل شيء».

(6)

«هل تلبس أمك الحجاب؟»، تسأل الفتاة البريطانية في موعدنا الأول.

تَكرر هذا السؤال مراراً. مرتين على الأقل، كانت السائلة تعلم أن أمي مسيحية.

يحب الغربيون الكلام عن الحجاب، سواء كانوا مثقفين أم لا. على الطرف الآخر، يحب المسلمون، خصوصاً المتديّنين، الكلام عن الحجاب أيضاً. أقول للأصدقاء إن السؤال الحقيقي سياسي دوماً: من يملك السلطة وكيف يستخدمها في العالم الإسلامي؟! أما موضوع الحجاب فهامشيّ وبسيط: للمرأة الحق في أن تلبس ما تريده.

يخفّ الضجيج كلما دخلت المنقّبتان الوحيدتان في الجامعة مطعمها الكبير.

يعود الصخب الطفولي ما إن تغادران.

(7)

الوحدة في بلادهم مختلفة عنها في بلادنا. لا يبتسم لك الباعة أو المارة أو الندل؛ لا يسأل عنك الجيران؛ لا يلقي أحدهم تحية الإسلام

بلا داع؛ لا يبتسم الناس في المصعد؛ لا يسألك الطلاب أو الأساتذة عن أحوالك وأحوال عائلتك؛ لا تثرثر معك عاملات النظافة وأصحاب المحال التجارية؛ لا يؤنس وحدتك التنصّت على الناس في الحدائق والمقاهي لتتعرّف على لهجاتهم البعيدة عن العاصمة دمشق. الوحدة هنا مكتملة ودائمة الحضور، كالبدر في الشعر العربي.

يقول إدوارد سعيد في «الاستشراق» إنّ الفارق بين النص والواقع عامل رئيس في فهم ظاهرة الاستشراق. ما يقرؤه الرحّالة الغربيون يختلف عن الواقع؛ لذا، كانوا يزيّفون الواقع كي يطابق النصوص.

في رحلتي إلى الغرب، أربكني الاختلاف بين النص والواقع. في دمشق، كنت أقرأ جون ستيوارت مِل، وهنريك إبسن، بشغف. مع وصولي إلى القارة الأوروبية، حصل انفصام بين الصورة المتخيّلة للغرب والواقع المُعاش. أكثر ما كان يشغل بالي في سورية، هو تحرر الفرد من سطوة الجموع. من هنا، لكتابات إبسن ومِل سحرها الخاص. أما في الغرب، فيفجؤك عسف الفردانية. ما يحتاج إليه هؤلاء هو بعض التعاطف والعودة إلى بعض القيم الجمعية.

على الحياة أن تكون في مكان ما بين هذين القطبين.

(8)

«أنا لا أحبذ الخوض في هذا الموضوع. أجل، نحن نريد السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين، ولكن لا معنى للخوض في حق دولة إسرائيل في الوجود».

حتى أكثر المتعاطفين مع القضية الفلسطينية حماسةً وصدقاً، يجدون اعتراضاتنا على مبدأ وجود دولة إسرائيل مزعجة. هم يخشون أن يعني كلامنا أننا نريد رمي اليهود في البحر. أحاول القول إننا نتكلم

عن مبدأ العدالة، وإننا ـ بعضنا، من دعاة السلام ـ نأمل في قيام دولة واحدة على كامل تراب أرض فلسطين للشعبين، أو دولتين إن كان ذلك ممكناً. ولكن، مهما كان الحل، لن نقبل بالتسليم بحق دولة إسرائيل في الوجود.

باستثناء فتاة يهودية أمريكية، ودكتور بلجيكي في دراسات الشرق الأوسط، كل المتعاطفين والعاملين بشهامة وصبر في الشأن الفلسطيني يتجاهلون هذه النقطة الحرجة خوفاً من اتهامهم بمعاداة السامية.

أما الإسرائيليون الذين التقيت بهم، فلم نكن لنصل إلى هذه القضية. سرعان ما تنكسر إمكانية أي حوار، حتى مع أكثرهم يساريةً. لم نتفق حتى على تعريفات أولية لبدء حوار، سواء كان الموضوع أبا عمار، أو حماس، أو السلطة الفلسطينية. نصمت بغضب لنتيح الفرصة للأوروبيين كي يقولوا شيئاً.

يتكلم الإسرائيلي مع السوري وكأنه يكلم كائناً فضائياً غريباً. يتحدث بحذر شديد وبخوف تشي به العيون والمسافة الفيزيائية التي يحاول الإبقاء عليها في كل الأوقات. في الشأن السوري، أظهر الإسرائيليون معرفةً بالوضع السوري تفوق أضعاف معرفة أي أوروبي عادي، وتعاطفاً مع الضحايا. أخبرني جميعهم أنهم يكرهون الأسد ويخافون انتصار الإسلاميين، وأنهم يرون مصلحة إسرائيل في إطالة أمد حربنا؛ معظمهم يختم بكلمات حزينة: «أحياناً، أتمنى ان تنتهي هذه الحرب بأي ثمن وبأية نتيجة. لا يستحق أي شعب مثل هذا المصير المحزن. كان الله في عونكم!».

(9)

« الخريف هنا توبيخ الجمال للغريب»، يقول محمود درويش.

لأيلول نكهةٌ لا نعرفها في بلادنا. التحوّل الهادئ البطيء تعكسه أوراق صفراء تتناثر في كل مكان كما في لوحات «فان غوخ».

برد خفيف يجعل تجول الغريب في المدينة الخالية أكثر غربةً، ولكن أقرب إلى الطبيعة الأم.

جمال الخريف أكثر غربة من قبحه: حتى الطبيعة الأم، حين تقترب منا، توبّخنا في الغربة.

(10)

يقول «غاريث» إن من يعيش في «نوريتش» لا يستطيع الرحيل.

نوريتش مدينة صغيرة ذات طابع ريفي. تغلق محلاتها في السادسة مساءً، وتخلو من المارة تماماً في الثامنة، باستثناء أيام العطل. يمر فيها نهر صغير. لا يوجد في المدينة أبنية حديثة من ذوات الطوابق العشرة فما فوق، إلا في بعض الضواحي البعيدة. يردد أهلها أن في نوريتش أكبر عدد من الكنائس في بريطانيا، ويضيف بعض آخر البارات، بالنسبة لعدد السكان؛ أيضاً، النسبة الأعلى من الملحدين واللا-أدريين. تكاد تخلو المدينة من الأجانب، ويسخر باقي الإنكليز منها، متهمين أهلها بممارسة سفاح القربى، نظراً لانغلاقها تاريخياً.

كالكثير من المدن الأوربية، تشكّل الجامعة، إن وجدت، أحد معالم المدن الصغيرة الرئيسية. اقتصادياً، ترتبط المدينة بعشرات آلاف الطلاب الأجانب الذين يدرسون في الجامعة. على الرغم من ذلك، وبعد بضع سنين، اكتشفت أن حياة المدينة المحافظة تبقى منفصلةً عن الجامعة. العديد من البارات والمطاعم والنشاطات تنحصر إما بين الطلاب أو بين السكان الأصليين. تتوازى حيوات الناس في الزمان نفسه، ولكن في أمكنة مختلفة وبأساليب مختلفة.

عشتُ غريباً في نوريتش في السنة الأولى. بعد ذلك، عشت حياة الطالب. في النهاية، بدأت أعيش في المدينة كما يعيش أهلها.

وصلت إلى «نوريتش» في بداية العام الدراسي 2009-2010، وغادرتها في صيف 2015. لم أكن لأعلم عند وصولي بأنني سأخسر وطناً لأستبدل به مؤقتاً هذه المدينة الصغيرة.

(11)

تعلّمت الكثير في بريطانيا عن الكتابة.

أولاً، وقبل كل شيء، لا يستطيع أحدنا أن يعرف الكثير في هذا العالم. في مجال اختصاصي نفسه، فلسفة اللغة، لا يستطيع المرء أن يدرس الأعمال المختلفة للفلاسفة المعاصرين. إما أن تختص بالتداولية أو بالنحو التوليدي؛ دع عنك فلسفة العلم وفلسفة الدين وفلسفة التاريخ وعلم الجمال. على المرء أن يقرأ ويبحث في ما يثير اهتمامه بحق، وأن يتحلّى بالتواضع في الأمور التي لا يتيح له الوقت العمل عليها.

ثانياً، فقط الكتابة الواضحة المباشرة البسيطة هي الكتابة الحقّة. كل الغموض والخزعبلات والاستعارات والتشبيهات العميقة يجب التخلي عنها. «إن لم تسطع قول ما تريد قوله بوضوح، فهذا يعني أنك أنت نفسك لا تفهم ما تريد قوله»، يقول الفيلسوف الأمريكي جون سيرل.

غادرت بريطانيا واثقاً من نفسي، وشاكراً لحظي الجيد الذي أتاح لي التعلّم هنا.

(12)

أُصبتُ بالبارانويا في الغرب. يتراءى لي أن الناس هنا تسيء معاملتي دائماً: عندما تريد أن تستأجر مسكناً ويرفضونك؛ عندما

تريد أن تلتحق ببرنامج تعليمي ويبلغونك أن لا مكان لك؛ عندما لا يفهم الناس لكنتك الغريبة؛ عندما يقولون إنهم لم يفهموا فحوى كلامك؛ عندما يدمدمون بشيء لا تفهمه؛ عندما تفلت مزحة عن الشرقيين ولا ينتبهون لوجودك بينهم؛ عندما تتشاجر مع صديقتك أو مع شريكك في السكن؛ عندما يسخر الطلاب منك؛ عندما يخالفك أساتذتك في الرأي؛ عندما لا يجلس أحد بجانبك في الباص لأنك تتكلم العربية بصوت عال على الهاتف النقّال؛ عندما يصمت الناس لحظة دخولك؛ عندما يتأخر الطعام الذي طلبته في المطعم؛ عندما تسمع نشرة الأخبار الدموية عن الشرق الأوسط وتعتقد أن الناس الموجودين يرمقونك بنظرات اتهامية؛ عندما تمر بجانب الخيم التعريفية بالإسلام الممتلئة بمحجبات ومنقبات مفصولاتٍ عن الرجال ذوي اللحى الطويلة محفوفي الشوارب، ويسكت الأصدقاء اللذي يتجولون معك أو يبتسمون؛ عندما يسألك الناس هل تأكل لحم الخنزير، بعد سنين من الصداقة؛ عندما يقول الناس «نحن المسيحيون» أو «نحن الغربيون»، ثم ينتبهون لوجودك؛ عندما تفتح باب البيت، ثم تغلقه خلفك، وتجد الوحدة والضجر في انتظارك على أحرّ من الجمر: تقول إنك وحيد لأنهم لا يحبوننا.

أُصبت بالبارانويا، ولم أشفَ منها.

(13)

يقول العراقي في نوريتش: «الحمدلله، لا يوجد في بلدنا هذا الكمّ من الدمار. سمعتُ أن آلاف اللاجئين السوريين يتوزعون في العراق. يا رجل، هل يتسع العراق للمزيد من اللاجئين؟».

(14)

بعد ست سنين في الجامعة، يخبرني موظفو شؤون الهجرة فيها أن

طلبي لتمديد إقامتي خطير أمنياً، وأن الجامعة لا تحبّذ تقديم طلبات باسمها لمن هو في وضعي، أي لمن يحمل وثيقة سفر سورية.

(15)

كانت النساء المحليات يتفادينني ما إن يعرفن أنني سوري، أي مسلم بالنسبة لهنّ. إن أرادت امرأة في قرية صغيرة أو مدينة صغيرة أن تدخل في علاقة ما، فغالباً لن تختار المسلم.

ليس الأمر عنصريةً، بل نوعاً من الخوف من المجهول.

معظم المواقف التي نتعرّض لها في الغرب يمكن فهمها بهذه الطريقة.

(16)

مع تحوّل الحرب السورية إلى معركة طويلة الأمد، أصبح الناس يشكّون فينا جميعاً. يتراوح موقف الناس بين تعاطف غير صادق، وشكل من أشكال احتقار الشرق. الطلاب الذين درّستهم اللغة العربية والفلسفة كانوا أكثر صراحةً، ربما لأنهم لم يتعلّموا تغطية مشاعرهم وأفكارهم بعد.

«لماذا يحارب المسلمون بعضهم بعضاً طيلة الوقت؟».

«ما ذنب المسيحيين في هذه المعركة؟».

«هل صحيح أنكم تقتلون بعضكم بالأسلحة الكيماوية؟».

«إذاً، هل يريد المسلمون الخلافة؟».

يسألني بعضهم فزعاً عما إن كنت أدعم «القاعدة»، عندما يعرفون أنني معارض للنظام السوري. يقول آخرون، نيابةً عني، إنني بالطبع ضد تسليح الإسلاميين، وإنني بالطبع لا أتمنى سقوط الرئيس السوري. أحتجّ وأعترف أنني أدعم كلا الأمرين. طُردت من اجتماعين ليساريين

في حملة «أوقفوا الحرب»، واضطررت للدفاع عن نفسي بشدة، عندما اتهمني مؤيدون للنظام بأنني إرهابي، في جلسة عامة.

أصبحت كلمة «سوري» مرافقة للإرهابي واللاجئ معاً؛ تشبه ما كانت توحي به كلمة «صومالي» في التسعينيات، و«عراقي» بعد الغزو الأمريكي.

وجوه الناس الحزينة، الخائفة قليلاً، ما إن تسمع بأنك سوري، تجعل غربتك أزلية.

(17)

«حتى في يوغوسلافيا لم نصل إلى هذه الدرجة من الدموية. كانت حرباً سريعة انقضت في سنتين. مساكين هؤلاء السوريون...».

تقول صديقة كرواتية.

(18)

في الأشهر الأخيرة اختلط عليّ أمر الوطن. ذهبت إلى اسطنبول لمدة شهرين، ثم عدت إلى لندن، ومنها إلى «نوريتش».

في القطار العائد إلى «نوريتش»، راودني شعور طاغٍ بالطمأنينة، كأنني عائد إلى دمشق.

(19)

للكاتب المصري يحيى حقي قصة شهيرة بعنوان « قنديل أم هاشم»: يذهب إسماعيل إلى أوروبا لدراسة الطب، ثم يعود بعد سنين إلى مصر حيث تسود الخرافات والسحر. يجد إسماعيل أمه تداوي رمد فاطمة بزيت من قنديل أم هاشم، السيدة زينب، مما يزيد من مرض فاطمة. يغضب ويحطّم القنديل في ساحة الجامع. لاحقاً، يهدأ اسماعيل ويفهم

أن التخلص من الخرافات يقتضي أن يعيش المرء بين الناس وأن يحبهم، لا أن يفرض نفسه عليهم من موقع القوة المسيطرة، سواء باسم العلم أو الحضارة أو التقدّم.

أعتقد أن ما يحاول حقي قوله هو أن علينا دائماً أن نشعل القناديل؛ يأتي النور من الحب لا من البغض.

أما أنا فأنهيت دراستي الجامعية وبقيت أهرب من منفى إلى منفى. ولكن لا قناديل لنشعلها في المنافي، لا نور في المنافي، لا قناديل تهدينا. قنديل أم هاشم في الوطن فقط.

(20)

على باب مطعم «ماكدونالدز» في اسطنبول، طفلة سورية تلعب مع بائعة المثلّجات. تختبئ الفتاة خلف الباب، لتعود وتظهر أمام البائعة التي تندهش كل مرة من الخدعة.

تقول لي البائعة بإنكليزية مكسّرة إنه لا يُسمح لها باللعب مع المتسولين السوريين، ولكنها لا تستطيع مقاومة الطفلة. أسأل الأم عما إن كانت تريد أن أشتري لهم بعض المعجنات من مطعم مجاور. تطلب الطفلة بطاطا مقلية من «ماكدونالدز». تبتسم الأم مُحرجة. أشتري لهم وجبتين من المطعم.

يقول صديقي الفلسطيني إن مرتّبه جيد في السعودية، ولكنه ينفق معظمه في دعم من بقي من العائلة في سورية. يحمل الطفلة التي تنتظر البطاطا بفارغ الصبر.

«أنت ما عندك ولاد يا أبو العيد. أحياناً بفكّر أنو هالولاد السوريين يلي بالشوارع هنن ولادي. إذا متت أو مرضت، ولادي هيك رح يتشردوا. ما بدي شي غير أمّن هالولاد».

يقول رئيس قسم الفلسفة في جامعة نوريتش كلاماً مشابهاً، معلّقاً على أحوال غزة.

أفكر أحياناً أنه لا توجد أي فوارق عميقة بين الثقافات المختلفة. ما نريده جميعاً هو الأمر ذاته في نهاية الأمر: يبحث الناس عن الحب، وعن الأصدقاء، وعن السكينة؛ يريدون أن ينشأ أطفالهم في بيئة آمنة وأن يحظوا بتعليم خلّاق؛ ألا يخشوا الفاقة في قادم الأيام؛ أن يشعروا بالأمن في منازلهم؛ أن تُسمع أصواتهم ومطالبهم، وأن تؤخذ آمالهم ومخاوفهم على محمل الجد؛ أن يعيش آباؤهم وأمهاتهم بكرامة عندما يشيخون؛ أن تبقى الأنهار والأشجار والسهول الخضراء والشواطئ الصافية مفتوحة لمن تنهره المدن بقسوة؛ أن ترسم الغيوم أشكالاً تساعدهم على المضي إلى الأمام، في سماء مفتوحة لا سقف لها.

هذا ما أردناه لسورية الحزينة، نحن أيضاً، لا أكثر ولا أقل.

(21)

غادرت «نوريتش» إلى اسطنبول؛ حيث سأعيش لفترة لا أعلم إن كانت ستطول أم لا.

أتمنى أن تستقبلني بقية مدن المنافي القادمة بترحاب، كما فعلت «نوريتش».

أنا، عن نفسي، سيكون لي قنديل أشعله وأعتني به في كل مدينة.

في انتظار اليوم الذي سأعود فيه لأضيء قنديل أم هاشم المفقود، سأضيء كل القناديل لها.

إزمير، من لا برّ له لا بحر له

(نشرت في «الجمهورية» في 23 تشرين الأول 2015)

من الزبداني إلى اليونان

أقف مرتبكاً أمام الموظفة التي تأخذ جواز السفر السوري وتقلّبه بقرف: «لا يوجد حجز».

أعتذر منها بتذلل وأطلب منها أن تتأكد. أُريها رسالة شركة الطيران على الموبايل.

تضحك بخفة: «آه. اسم العائلة ليس واضحاً هنا».

في الطائرة تجلس بجانبي فتاة محجّبة، ما إن تصعد إلى الطائرة حتى يرنّ هاتفها. «أبو المجد» يؤكد أنه سيكون في منطقة د، في انتظارها.

«أنا بحكي عربي، وفهمت كل الحديث».

تضحك بصدق: «إيه، المهرّب بدو يعرف إمتى واصلة».

تبتسم بثقة الشباب ومرحهم.

أخبرتني الفتاة بقصة حياتها على الطريق إلى بحر إزمير. هي من الزبداني، هربت مع عائلتها إلى دمشق قبل سنتين. تركوا دمشق عندما

رفض الملّاك تجديد عقد إيجار البيت؛ تزامن ذلك مع اشتداد حدة المعارك في بلدتهم.

«وليش طالعة ع ألمانيا؟».

«شو ليش؟ وين بدي روح؟ تعا لفرجيك حارتنا. كلها عالأرض. حزب الله ما خلّى حجر على حجر. والله ما عرفتها أول شي، قلت شي صورة من حمص؛ بس بعدين دققت... هي حارتنا!».

تبحث في الهاتف النقّال عن صورة الحارة، لا تجدها.

«بتعرفي الطريق بعدين من اليونان لفوق؟».

«إيه، كلّو مرتّبينو. قال هلق في ناس عمتساعد كتير».

من الزبداني إلى دمشق إلى بيروت إلى اسطنبول إلى إزمير إلى اليونان، على نية الوصول إلى ألمانيا: رحلة عادية، كما تصفها صديقتي المرحة.

«شلون لقيتي بيروت؟».

«نحنا كنا بعاد شوي عن بيروت، بمنطقة سنّية بس بعيدة. ما بيحبونا يا أخي، شايفين حالون وما بيحبونا. وباسطنبول تسليت، كتير حلوة، بس كمان وقت يعرفو إنك سوري بيطلّعولك على أنك أقل منّون. منجرّب ألمانيا، قال هنيك بيعاملونا عأساس بشر».

تعبث بهاتفها النقّال قليلاً.

«إلك حدا بالزبداني؟».

«إيه، في شباب من الحارة. منحاكيون كل فترة، يعني كنا نطمن عالبيت قبل ما يروح. عميقولو بس بدّن يطلعو. ما بقي شي، عشو بدّن يضلّو؟».

«أنا هاد رأيي. أحسن ما يستشهدو، يطلعو إذا خلص سكّرت».

«الزبداني كلها راحت، أخدها الحزب والشيعة. بقيو الشباب محصورين بكم شارع. أنا ماني طائفية، بس هدول تبع حزب الله أحقر ناس، نحنا يلي كنا طيبين ومنحبون قبل الثورة. لازم يطلعو الشباب، حرام يضلّو. خلص، صرلون تلات سنين عميحاربو لحالون الجيش والدفاع الوطني وحزب الله والكل. شو لازم يموتو للعالم تنبسط؟ دافعو عن بيوتنا لآخر نفس. هلق يا أخي ما بقي بيوت، كلّو صار عالأرض».

تصمت الفتاة للحظات. لا يوجد مرارة في كلامها، بل نوع من تقرير الوقائع البارد تسرده ببساطة وسلاسة.

مع اقترابنا من إزمير تطول لحظات صمتها.

«بيقولو سهلة الرحلة»، تقول بصوت خافت.

«سهلة كتير. كلها ساعة ونص وبتصيري باليونان انشالله».

أصحبها إلى الباص الذي سيأخذها بعيداً عن إزمير في منطقة يتجمّع فيها السوريون الهاربون.

«خلص، ما في داعي تجي معي، والله. هي تأكدنا من شوفير الباص كيف بدي وصّل لعند أبو المجد».

أبتعد وفي قلبي غصة.

أشكر الموظفة اللئيمة في قلبي على ترتيب جلوس الشابة السورية بجانبي؛ ربما فكرت أن أحدنا سيودّع الآخر قبل رحلة البحر.

كان تخمينها صائباً.

قواربهم و قواربنا

إزمير، ثالث أكبر مدن تركيا، ومعقل حزب الشعب الجمهوري، المعارض لأردوغان وسياساته، الإسلامية من جهة، والسورية من جهة

أخرى. يشرح لي أصدقاء أتراك قريبون من الحزب أنهم يعارضون تسليح «القاعدة» في سورية، أننا كلنا «قاعدة» بالطبع، أن أردوغان مسؤول عن انتشارها؛ أن النظام السوري لم يرتكب كل الجرائم المنسوبة إليه، وأن الآلة الدعائية لأردوغان تبالغ وتكذب طيلة الوقت. لم ننجح في تغيير هذه الصورة الكاريكاتورية عن ثورتنا اليتيمة. يقولون إن هناك تغييراً ما في الموقف العام اتجاه اللاجئين السوريين: قبل سنوات كان هناك حالة عدائية؛ اليوم يتقبّل الناس وجود اللاجئين كحالة إنسانية، وإن على مضض. في البداية كانوا يرون فيهم أتباعاً جدداً للسلطان أردوغان.

تروي لي شابة تركية من إزمير أن المدينة اهتزت أكثر من أي مدينة تركية أخرى لصور الغرقى هذا الصيف. ابتدأ الناس يفكرون بمصير السوريين جدياً، وأصبحوا يساعدونهم قدر الإمكان؛ ولكن الأعداد الكبيرة بحاجة إلى تحرك حكومات لا إلى مبادرات فردية. يموت الناس على شواطئنا، على شواطئنا التي نحبها ونعتز بها هذه! لم نرهم من قبل؛ فجأة ظهروا على نشرات الأخبار. لماذا لم نفعل شيئاً قبل هذا الموت؟

سألت عن أسعار التهريب. يبدو أنها انخفضت في الخريف، من 1200 دولار في الصيف إلى 900 دولار فقط الآن «عَ الراس»، ثمن رحلة البحر وحدها. تختلف الترتيبات بحسب المهرّب. بعضهم يتكفّل بك من منطقة «أكسراي» في اسطنبول إلى إزمير، ومنها إلى اليونان. آخرون يطلبون منك المجيء إلى أزمير، وهم يتكفّلون بك هناك.

القوارب المطاطية الخفيفة للصيف؛ في الشتاء قد تظهر القوارب الأكبر. يقول أحد عاملي الإغاثة إن أعداد الواصلين إلى إزمير ومحيطها منذ بداية تموز يفوق الثلاثمئة ألف، أكثر من نصفهم من السوريين؛ البقية عراقيون وأفغان وأفارقة. التغيير حصل عملياً مع نهاية حزيران، لا تُعرف بالضبط أسباب ذلك. الصيف الماضي والذي قبله كان التهريب

خفيفاً. يغادر يومياً ما يفوق الألف لاجئ إلى الجزر اليونانية حالياً. عدد السوريين اللاجئين المسجّلين في إزمير يفوق سبعين ألفاً. يعيشون هنا بهدوء، بجانب البحر الذي يبتلع بعض إخوتهم أو يأخذهم إلى هناك، إلى الشمال البارد. بعضهم يريد فقط أن يجمع المال اللازم لرحلة القارب؛ آخرون مقيمون هنا إلى أن «يفرجها الله عليهم وعلينا»؛ غيرهم يغيّرون إقاماتهم باستمرار عسى أن يجدوا ما هو أفضل.

تقع المدينة في خليج يجعل البر يحيط بالبحر من جوانب ثلاثة. يمشي الناس على الشاطئ يتأملون بحرهم العزيز. الجو صحو في تشرين الأول، على غير المتوقع: تريد الطبيعة أن تساعد المنكوبين المنتشرين على شواطئ إزمير وقراها، بعيداً عن وسط المدينة، في رحلتهم القصيرة تلك. يقول الأصدقاء الأتراك إن إزمير نفسها مدينة لاجئين. كانت المدينة يونانية أيام العثمانيين، ثم هُجّر أهلها مع حروب أول القرن الماضي، واستوطنها أتراك هُجّروا بدورهم من الأراضي العثمانية التي سقطت تباعاً في أوروبا. لم أتأكد من كتب التاريخ حول دقة هذه القصة المتواترة.

تاريخياً، كانت الجزر والبر إغريقية بالكامل، ثم بيزنطية. لاحقاً، أصبحت عثمانيةً. مع تفكك الإمبراطورية، أصبح البر تركياً، وجزره يونانية. على الخريطة، من الصعب أن نصدّق أن هذه الجزر التي تكاد تلامس البر لا تنتمي إليه حقاً.

وحده السوري، ومن في حكمه اليوم من لاجئين يفترشون أرض إزمير، يعرفون الفارق الفعلي بين البر التركي وجزره اليونانية.

تخرج قوارب صغيرة حقيقية إلى تلك الجزر كل ساعتين، من موانئ صغيرة جميلة تاريخية ومن قرى متعددة؛ يصعد إليها من يملكون جوازات سفر أوروبية وتركية وغيرها من دول العالم الأول. يرافقهم

من على بعد بالقوارب المطاطية آلاف السوريين، من نقاط تجمّع تبعد مئات الأمتار فقط، إلى الجزر ذاتها. يستقبلهم موظفون مهذبون يتبعون سلطات حدود الاتحاد الأوروبي؛ ويستقبلهم، أيضاً، ناشطون متطوعون مرتاعون يتتبعون أخبارنا على شاشات التلفاز كل يوم.

البحر أيضاً يعرف الفارق بيننا.

قواربهم لا تغرق أبداً.

«سكود في كفر الحمرا»

«والله يا أخي ما بعرف إش أقلّك. تعوّدنا نحنا على القصف، هاون، راجمات، قذائف دبابة، كلّو عادي والله. بتقعد بالبيت وبتستنى شو الله كاتبلك. بس يا أخي يلّي صار بهداك اليوم مو معقول. الله وكيلك يا أستاذ عُدي الناس تجمّعت متل يوم الحشر. بواب البيت تخلعت، ما بقي ولا شباك بالبناية كلها. حملت الولاد وطلعت من البيت دغري. ما عرفنا إش صاير. سمعنا أنو سكود. قال أربعتشر بناية بلّي فيهم نزلو. فوق المية وتمانين نفر ماتوا دغري. الضيعة كلها بالشوارع مو عرفانين شو بدنا نعمل. خافت العالم ينزل سكود تاني. كلو بهالسيارات. سيارات مين ما منعرف، ولوين رايحين ما منعرف. المهم بس بدنا نطلع لأي محل. أنا حامل الولاد وعبركض من شارع لشارع، ما أخدنا معنا شي من البيت. النسوان بالشوارع بقمصان النوم، الرجال بالبيجامات. كل الولاد عميبكو. ابني ضلّ يسألني: ‹يعني بابا رح نموت اليوم نحنا؟›. قلتلو: ‹لأ، انشالله لأ يا بابا›. بعد ما بعّدت السيارة عن الضيعة سألت الشوفير: ‹وين صرنا أخي؟›، قلّي: عطريق ضيعة «س». قلت: ‹يالله، إلي عم هون. نزلني›. مشينا شي ساعة، ورحنا نمنا ببيت عمي. رجعت بعد يومين، أخدت كم غرض من البيت. الضيعة فاضية. أجو عالم دفنو يلي ماتوا

وراحوا. قلت والله ما رح ضل بهالبلد مع الولاد بعد هالرعبة. بعد تلت تيام طلعنا عتركيا...».

يقول الرجل إنه وصل إلى إزمير منذ مدة قصيرة. لا أمل في مستقبل كريم في هذا البلد. أجل هناك مدارس مجانية، ولكنه لا يملك ثمن قسط الباص الشهري للأولاد. ذكر أصدقاء في عنتاب واسطنبول المشكلة نفسها: قسط الباص. لو كان يملك المال، لذهب إلى اليونان فوراً. ما الذي نجنيه من البقاء هنا؟!

يُخرج الموبايل ليُريني يوم سقوط السكود. يأتينا صوت صارخٌ باكٍ من الموبايل: «الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر يا عالم!». أطلب منه أن يغلق الهاتف خوفاً من العيون التي تنبّهت سريعاً إلى التكبير.

يخاف السوري كل شيء: يخاف من التكبير، ومن الأتراك والأجانب الذين يسمعون التكبير؛ من المواطنين الأتراك، ومن الشرطة التركية، ومن المنظمات غير الحكومية التركية؛ يخاف حتى من أن يستمع لمن يكبّر يائساً يوم سقوط السكود على أرضه.

يخاف، ويصمت، وينكسر مهزوماً.

الخريف الساحر، مع بحر إزمير الهادئ الكسول، يجعل قصة السكود تبدو كأنها قادمة من زمن آخر وهميّ.

المدينة الوادعة تحتضننا دون ودّ، كخريف لا نهاية له.

بسمانية: سيرك البؤس المتنوّع

يتجمّع السوريون في منطقة بسمانية. يفترشون الأرض في الساحة. عشرات الفنادق في الشوارع القريبة من محطة القطار الرئيسية في المدينة تمتلئ بنا. لا تستطيع أن تميّز بين من يعيشون في الشارع ومن

يسكن الفنادق. كلهم في المقاهي ينتظرون المكالمة الأخيرة، المكالمة التي تقول سنغادر بعد ساعات، خذوا التاكسي إلى نقطة العبور. يختلطون مع العراقيين وفقراء الأتراك. ببساطة استطعت أن أميز المهرّبين: يبدون كمحدَثي النعمة العرب. أيضاً، عشرات الملاهي الليلية المليئة بالعاهرات تجعل المكان أشبه بسيرك للبؤس المتنوّع على مقربة من بحر الهروب الكبير. يدعونا النادل إلى الملهى، متكلماً العامية السورية المكسّرة. إحدى العاهرات تبدو في السادسة عشرة، وزميلتها في الخمسين؛ أحيّيهم بابتسامة حزينة. عشرات الباعة الجوالين يبيعون الفياغرا وموبايلات قديمة. أسأل أحدهم ما الذي يجمع بين الأمرين. يضحك بمرح: «والله ما بعرف. هاد الشغّال هون بالسوق». أشكّ في أنه يبيع أيضاً بعض المخدرات. الشباب من عرب ماردين. يقول إنهم أتراك، بقوا في تركيا منذ البداية، أعتقد أنه يقصد تفكّك السلطنة العثمانية؛ غادروا إلى إزمير قبل سنوات سبع. نشرب الشاي في المطعم. مئات السوريين يتجولون بلا هدف. «كبسة» شرطة ودية جداً. لا أحد يركض أو يصرخ أو يبكي. العشرات من رجال الشرطة، ومثلهم من المدنيين ممن يعملون مع الشرطة: لا يلتفت السوريون إليهم، وكأنهم غير معنيين بهم. تجري المفاوضات مع المهرّب خلفي علناً. عائلة حلبية تتفق مع عائلة ديرية على العبور معاً. أمٌّ تجمع أبناءها الثلاثة وتشرح لهم ما عليهم فعله في القارب. شاب يكلّم أمه ويطمئنها على الهاتف. رجل حلبي يحلف إنه لا يملك إلا هذا المبلغ؛ يقتنع المهرب ويضمّه ويقبّله علامةً على القبول.

السادسة صباحاً، ما زال بعض السوريين منتشرين في المقاهي. ربما هذا هو المكان الوحيد في إزمير الوادعة الذي يفتح أربعاً وعشرين ساعة. شباب يناقشون البقاء في تركيا. لا إذن عمل، ولا دورات لغة، ولا مساعدات مالية: كيف سننجو هنا؟ في أوروبا تساعدك الحكومة، لا

تكذب عليك. يثق السوريون بالحكومات الأوروبية. فقط بعض المتديّنين السوريين يثقون بأردوغان. على العموم، يحيا السوري العادي حياة على الهامش في تركيا. هناك تأمين صحي معقول، ومدارس مجانية في المدن الرئيسية. ولكن من الصعب أن نجد عملاً، أو أن نفكر في مستقبل آمن، في تركيا الآمنة.

ربما لا تستطيع تركيا ضبط كل هؤلاء الناس. ما سيفعله قمعهم عملياً، إن حاولت الحكومة ضبط عمليات التهريب، هو زيادة تسعيرة الهروب. سيجد الآلاف ممن يريدون الخروج بأي ثمن وسائل أخرى للعبور إلى الشمال البارد.

تقف تاكسي بجانب المقهى. امرأتان مع ستة أطفال يُحشرون بداخله بسرعة قياسية. لا مكان للطفل السابع. يقف أمام الباب ويبدأ بالبكاء. تصفعه المرأة وتسحبه إلى الداخل كحقيبة، تغلق الباب بعنف.

«ابلعا... ابلعا. ولا حرف!».

على النافذة وجه الطفل الدامع المرعوب، ويده الصغيرة تمسح دمعه الصامت.

المهرّب يدعو للمرأة في المقعد الأمامي: «بالسلامة خيتو، بالسلامة!».

يبتسم لي قائلاً: «بالسلامة خيو، عقبالك انشالله!».

سلامات

على مدى الأشهر الماضية، كنت أودّع الأصدقاء ومعارف مختلفين، أو اقاربهم، من منفاي الاسطنبولي. يكلّمني البعض من مرسين أو عنتاب أو اسطنبول. إما أن نلتقي سريعاً، أو نكتفي بسلامات على الهاتف. يسأل

بعضهم عن رقم مهرّب، أو يود الاطمئنان عن طريق الكلام مع سوري في تركيا. دائماً أكذب مطمئناً الهاربين: البحر هادئ هنا؛ دائماً يصدّقون.

لم يغرق أحد منهم، بعد.

يختفي السوريون في البحر؛ يأتون من سورية أو من لبنان أو من بقية المناطق التركية كي يركبوا البحر. معظمهم لا يستطيع حتى أن يفكر في رؤية إزمير خارج بسمانية، أو خارج نقاط التجمّع المحيطة بالمدينة. ليس اللاجئ كالسائح أو ابن إزمير. يمر السوري بإزمير كمحطة نحو الشمال الأوروبي. لا تراه إزمير ولا يراها. تفوتنا فرصة التعرّف على إحدى أجمل مدن تركيا، والمشرق ربما.

تفاديت السفر إلى القرى القريبة السياحية حيث قد أرى تجمّع الهاربين بعيني، بسبب ما سمعته عن «كبسات» الشرطة المتباعدة عليهم. سيأخذونني إلى سجون لا مخرج منها، إن وقعت في أيديهم، ولن يصدّقوا قصة الصحفي من سوري مسكين.

تجولت لساعات على الشاطئ، حيث صيادو السمك يقتلون الوقت؛ مئات المراهقين يعبثون على الشواطئ؛ فتية يقبّلون فتياتهم باستمتاع من يكتشف العالم؛ أطفال يحتضنهم أهلهم بمحبة جارفة؛ يستلقي الناس على العشب يقرؤون روايات وأشعاراً، وخلفهم بحرهم العزيز؛ يفصفص الأتراك «البزر» ببلادة ويرمون بالأوساخ في البحر وعلى الرصيف، ببرودة أعصاب تشبهنا نحن قبل الثورة. بين كل هؤلاء، عشرات السوريين يتأملون البحر بخوف. لا يتكلمون أبداً.

كل مساء ينتشرون هنا مراقبين الأتراك والبحر الهادئ.

أقف لأستمع إلى لحن مألوف، شابان عراقيان خلفي يتأملان البحر وهما يستمعان إلى حميد منصور.

«سلامات سلامات، أبعث سلامات

ويّا الرايح ويّا الجاي أبعث سلامات
سلامات سلامات، ريتك سلامات
صبح ومسا يا هواي ريتك سلامات».
لا تصل السلامات، أفكر بأسى.
لا يحملها بحر إزمير.
علينا أن نبعثها، على أية حال، لأولئك الذين بقوا في الوطن،
ولأولئك الذين وصلوا إلى الشمال البارد،
ولأولئك الذين سيركبون البحر اليوم،
وغداً،
وكل يوم.

هِمَمُ الفتى

(نشرت في «الجمهورية» في 7 تشرين الأول 2015)

أمشي وحيداً تحت المطر من كنيسة القديس بولس إلى الجسر الحديدي الجديد على نهر «التيمز»، مُتجهاً إلى متحف الفن الحديث «التيت»؛ أمشي على مهل كالسيّاح الأجانب: لا شيء يربطني بهذه الأرض. النهر هادئ دائماً، راكد، كالإنكليز أنفسهم. أشعر بخفّةٍ لم أعهدها سابقاً. بعد أشهر من التفكّر، قررت أن أغادر إنكلترا. إلى أين؟ لا أعرف بالضبط؛ تركيا هي المحطة القادمة المؤقتة. من منفى إلى منفى إذاً. العشرات يلتقطون صور «سيلفي»؛ عوائل كبيرة ومجموعات سياحية أوروبية تعبث بمرح؛ الضجر يكسو وجوه الباعة الجوالين من فقراء المهاجرين؛ امرأة منقّبة تمشي على الصراط المستقيم إلى الطرف الآخر من الجسر الحديدي. أنظر حولي مرتبكاً: كيف تودّع بلداً بعد سنوات ستّ، وأنت تعرف أنك لن تعود؟ هل أودّع المتاحف؟ الساحات الرئيسية في العاصمة؟ أقرب الأصدقاء؟ البيرة الإنكليزية؟ محطات القطارات التي أحبها، أم القطارات نفسها؟

أقف على الجسر متأملاً المدينة.

ربما تكون هذه زيارتي الأخيرة إلى المدينة، أكرر لنفسي مراراً. أشعر بأنني يجب أن أشعر بشيء ما. «هذا أحد أهم متاحف العالم يا عدي!»، أقول لنفسي. «شو يعني؟»، يهمس شيطاني. أتجه إلى القاعة التي أعرفها جيداً، قاعة بداية القرن العشرين إلى منتصفه. قد لا أرى هذه اللوحات مرة أخرى، ولكن حتى هذا لا يساعد على التركيز. لماذا أغادر بريطانيا؟ ولماذا أذهب إلى تركيا؟ من منفى إلى منفى، ولا يعنيني الأمر كثيراً في الحقيقة. أقف متأملاً لوحات بيكاسو، للرجل شهرة مشروبٍ غازي؛ يأتيني شعور غامض في معدتي كلما حاولت فهمه. للمرة الأولى أعتقد أنني أرى ما وراء اللوحات، أو ما تعنيه اللوحات حقاً: «الراقصات الثلاث»، و«امرأة تبكي». تُشبهن السوريات في زمن الحرب؛ أبتسم لهنّ بحزن. في غرفة مجاورة جياكوميتي وشخوصه النحيلة. يقول خبراء الفن إن كليهما تأثّر بتجارب الحرب. يُحاضر رجل ملتحٍ في خمسينياته لمجموعة من السياح عن لوحات الأخير، ويختم بلهجة المنتصر: «وكما تعرفون، تخلّصت البشرية نهائياً من هذه الفظاعات مع انتهاء الحرب العالمية الثانية».

علائم الارتياح على وجوه الشابات، والشدّ على الأيدي بين العشاق، والنظرة الحالمة لمن يتأملن شخوص جياكوميتي، كلها تدفع إلى الإيمان بمقولة الرجل الخمسيني.

يبتسم لي عندما يلاحظ أنني أستمع إليه، أفكرُ في قول شيء ما عنّا، ولكنني أنسحب خجلاً.

أغادرُ القاعة بعد أن أتظاهر بأنني أتأمل بعض اللوحات الأخرى، في الممر الهائل الحجم أقف لأرتاح قبل متابعة الجولة. رسامٌ شاب يتكلم عن إعلان الخلافة، فيما فتيات ثلاث يتابعن حديثه دون أن يفقهن شيئاً. يقول إن المسلمين مختلفون عنّا، وإنهم جميعاً يريدون

عودة دولة الخلافة. فنُّهم مختلف، وبيئتهم، وطبيعتهم؛ حتى مفهومهم للحب مختلف، للصداقة، للتسلية، للمتعة. لا يجوز أن نحكم عليهم بناءً على قيمنا وثقافتنا. علينا أن نتخلّص من هذه الأفكار الإمبريالية، علينا أن نتوقف عن فرض آرائنا على الشعوب الأخرى. إن أراد المسلمون الخلافة، فليكن؛ وهم يريدونها بالطبع. يتوقف لثوانٍ كي يقيس مفعول كلامه فيهن، يعود إلى الكلام مُستشهداً بثورة ما بعد الحداثة، يرمي بأسماء فوكو ورورتي وتوماس كون وديريدا في جملة واحدة. يعرف الشاب أن الفتيات يذبن شوقاً لأسماء فرنسية وأمريكية رنانة. منتشياً بنصره، يقف فجأة لينظر إلى الأفق المفتوح من النافذة المجاورة. إحدى الفتيات تخرّب المشهد بمزحةٍ جنسية، تقول إن للخليفة الذي يسكن في حلب عشر زوجات، ولا بدّ أنه يرضيهن جميعاً كل يوم لأنه مبعوث الله على الأرض. ينفجرن ضاحكاتٍ بشكل هيستيري.

أتركهم وأعود إلى التجول في المبنى.

على هاتفي النقّال رسالة تقول إن أحد أصدقائي وصل سالماً إلى اليونان اليوم، الرحلةُ من أسهل ما يكون. سألته قبل الرحلة: ألا تخاف الغرق؟ لا، لا شيء يدعو للخوف. المهرّب مضمون وموثوق، عدد الركاب معروفٌ سلفاً، ولن يتغير، لن يغامر المهرّب بسمعته الآن. أجل، الطريق من اليونان إلى هولندا أيضاً واضحٌ تماماً.

على بركة الله إذاً!

أصعد إلى الطابق الثالث، لا أفهم شيئاً من الفنون الحديثة التجريدية: فنٌّ قائم على الفكرة، وفنٌّ يخلط الفنون بعضها ببعض، وآخر ينظّر عن اللون والشكل والفراغ. أتذكّر زيارتي الأولى إلى هذا المتحف، حاولت جاهداً أن أقنع نفسي بأن لهذا الهراء معنىً ما. كنت أريد أن أتشرّب بصدقٍ آخر إنجازاتهم. لدقائق أقف أمام كل لوحة، محاولاً أن

أفهم؛ أقرأ كل شرح مرافق عن الفنان وعن اللوحة؛ أسجّل ملاحظات في دفتر صغير (أضعته لاحقاً، ولله الحمد) عن اللوحة وتاريخها، عن انطباعي عنها، عن أسئلة عميقة للأصدقاء وللشبكة العنكبوتية عمّا يمكن أن نفهم منها. اليوم أتجوّل مُسرِعاً وشعور بالعبث، وبالغضب وبالسخرية، ينتابني من فنّ ما بعد الحداثة: لوحة سوداء بالكامل، لوحة نصفها أحمر ونصفها أخضر، ألوان متداخلة كعبث طفلٍ في مطبخ أمه. أخرجُ من القاعة، وشعورٌ باللاجدوى يخنقني. هل للحرب السورية تأثيرٌ على ما أراه؟ أم أن العمر يجيز لك أن تكون نفسك بصدق؟ أو ربما كان للقراءات المتنوعة في السنوات الأخيرة دور أساسي في إعادة تكوين ذوقي ورغباتي؟ مهما يكن الأمر، بعد سنوات ستّ تغيّرتُ أنا، وبقي الفن الحديث يعبث بالمفاهيم والألوان والأُطُر.

أذهبُ لأجلس في إحدى المساحات الفارغة العديدة في المبنى، كان البناء تابعاً لشركة الكهرباء قبل تحويله إلى متحف، وما زال من الخارج على حاله، وبدرجة أقل في الداخل أيضاً. القاعات الكبيرة جداً تُتيح عرض لوحات مختلفة ومتنوعة من كل الأحجام. لا نقودَ معي لأدخل المعارض المدفوعة الثمن؛ دائماً أكتفي بالمعرض الرئيس المجاني. فتياتٌ صغيرات يتدربن على الرقص في الطابق السفلي؛ يراقبهن رجلٌ أربعيني يكاد يستمني واقفاً. فتاة تقبّل صديقها بشغف أهوج وكأنهما سيمارسان الجنس هنا على الكنبة، تغمزني الفتاة من وراء ظهره. امرأةٌ عجوز تتوقف لتستريح؛ تغمض عينيها وهي تبتسم. تفتح عينيها وتنظر إليّ مباشرةً، يكادُ الموت يطل من هاتين العينين المُتعبتين.

أغادرُ فَزِعاً متجهاً إلى الطابق التالي.

أجدُ هنا معرضاً عن الحرب، أدخل بخطىً مسرعة، وأفكر بأنني بتّ أكره المعارض. لا يستطيع المرء أن يتأمل عشرات اللوحات في

ساعتين؛ ولا يستطيع أيضاً أن يمضي عشر ساعات متتالية في تأمل اللوحات. يقول الأصدقاء إن عليّ أن أستقر في بريطانيا، وأن أقدّم طلب لجوء وأعيش هنا. يطالعني لباسٌ عسكري في إحدى اللوحات الضخمة، أقول لنفسي كل المنافي متساوية. لا أعرف بالضبط لمَ أغادر بريطانيا إذاً، لم يعد لوالديّ رأي، وباستثناء بعض الأصدقاء المشاكسين، الكل ينصح ببريطانيا. لماذا أتمسّك بجواز السفر السوري؟ ولكن ما الذي سأفعله في الديار الأوروبية؟ لستُ ربَّ عائلة كي أخشى على الأولاد، ولا أنا بصاحب مال. أقفُ محبطاً وسط القاعة.

ما الذي تعنيه الغربة حقاً؟ ألم أكن غريباً في دمشق؟ ألم أحلم دوماً بالسفر؟!

«هيرار سركيسيان، سوري أرمني»... تقول اللوحة التعريفية. ثمانية صورٍ فوتوغرافية كبيرة من سورية، معظمها لساحات المدن. أجلس على الدكّة حزيناً. ما الذي أتى بهذه اللوحات هنا؟ لا أستطيع التعرّف على كل الأمكنة. إحدى اللوحات من ساحة الميسات. لوحةٌ أخرى من حلب. أقتربُ وأنا أرتجف من لوحةٍ لمدخل قدسيا الرئيسي على طريق الربوة. من هنا كنت أعبر يومياً. بالقرب من هذا المدخل كان يسكن صديقي «س». أقتربُ من اللوحة ببطء، هل اللوحة جيدة؟ أنظرُ حولي. شاب يهمس في أذن فتاة شيئاً ما عن داعش؛ امرأة إسبانية تثرثر بصوت عالٍ على النقّال؛ عجوز يتكلم بلغة من أوروبا الشرقية عن اللوحات، ويهزّ الحضور رؤوسهم متفهّمين: كلهم من كبار السن.

أقتربُ أكثر من اللوحة.

ذهب «س» إلى تايلاند في شهر العسل مع بداية الثورة، ولم يعد بعد ذلك. زارته والدته لأشهر أربعة، ثم عادت إلى دمشق؛ لم تحتمل الغربة. أبتعدُ عن اللوحة وأنتقل إلى لوحة الميسات، لا شيء خاصاً في اللوحة.

أذكر أنني تناولت العشاء مرتين مع فتاة في مطعم على زاوية الساحة. أتذكر الآن اسمها الأول فقط، ولكنني لا أستطيع تذكّر اسم العائلة. كانت شابةً وجميلة، وتخاف كل شيء؛ سرعان ما انفصلنا. في أحد الشوارع القريبة من مدرسة أختي الثانوية.

يعلو صوت الإسبانية الضاحك. أقتربُ من اللوحة الحلبية. لم أزر حلب إلا مرتين قبل الثورة؛ لا يربطني بها الكثير. رجلٌ أسود ضخم رياضي يتأمل اللوحة الحلبية. رجل آسيوي وشقراء أوروبية فارعة الطول يتعانقان ويتهامسان في الزاوية مشيرين إلى اللوحات. أعود كالمنوّم إلى قدسيا. توفيت والدة «س» في حادث سيارة على طريق القصر الواصل بين دمشق وقدسيا. كان «س» تحت تأثير الحبوب المنوّمة حين كلّمته معزياً. قال لي إنه لن يحضر الجنازة، وإنها كانت تحبني كثيراً، وإنها كانت تطبخ الشاكرية خصيصاً لي، وإنه لا يستطيع البكاء الآن بسبب تأثير الحبوب؛ يضحك ببلاهة مستذكراً بعض قصصها معنا. أجلسُ على الدكّة مقابل اللوحة، بجانبي فتى ينسخ إحدى الصور بقلم رصاص. سُجِنَ أخو «س» قبل أشهر من وفاة الأم؛ ثم اختفى نهائياً. قبل أيام من حادث السيارة، كلّمت الأم «س» في تايلاند: «قلبي مو مرتاح. بدي شوفو، وبدي شوفك»، في الليلة التي سبقت الحادث، أخبرها أحدهم أن اسم الأخ موجود في قوائم المعتقلين الجديدة في القصر العدلي. في الصباح التالي ذهبت مع الأخ الأكبر إلى هناك. بحثت وسألت واستفسرت؛ لا حسّ ولا خبر عن ابنها المفقود. «يعني بيكون قلبها انكسر يا عدي؛ راجعة عالطريق وما بتعرفو عايش ولا ميت».

الساعة الرابعة؛ عليَّ أن أغادر هذا المكان.

بعد خروجهم من القصر العدلي، وقع الحادث. ابنها الأكبر الذي كان يقود السيارة بقي في المشفى. لم يحضر أيٌّ من أبنائها الذكور

جنازتها: الأول مطلوب، والثاني مفقود، والثالث مصاب. الابنة الوحيدة تكفّلت بكل شيء.

بعد أشهر، ظهر المفقود. كان مسجوناً بالخطأ كمعتقلٍ سياسي!

أتجول في لندن مُثقلاً بقدسيا، لا أصدقاء إنجليز لي في لندن، فقط بعض الأجانب والعرب. معظم ما يُقال عن الإنجليز صحيح: باردون، قساة القلوب، ومجبولون على التهذيب؛ ولكن الحياة تجري هنا بيسرٍ واطمئنان، ربما بسبب ذلك التهذيب. يبدو الأمر مُربِكاً: كيف أودّع لندن دون أن أودّع أي إنكليزي فيها! خارج المتحف فقط، تكتشف أن لا صلة له بالمدينة. من يزور المتاحف على أية حال، سوى السياح وطلاب الجامعات والمثقفون؟ كانت حماقةً أن أودّع المتحف. لم أجد إلا نفسي وذكرياتي السورية هناك، تُفلِت لندن التي أريد توديعها من يدي. أصل إلى وسطها السياحي التجاري، لا أشعر برغبة دخول متحف آخر؛ ولا شيء يجذبني. أقف فجأةً مبتسماً لتمثال أوسكار وايلد المستلقي بمرح. يتسلق أطفال في رحلة سياحية التمثال الذي يصوّره بالحجم الطبيعي. رجلٌ يدخّن على الناصية مراقباً الأطفال، وامرأة تصرخ على الهاتف النقّال محبطةً. يعبث الأطفال برأس وايلد المفتوح، يضحكون بمرح فيما يدخلون أيديهم في الجمجمة ويملؤونها بالقاذورات. أقتربُ منهم. ما الذي أراده النحات من ترك رأس الشاعر مفتوحاً؟ قتل التعصّب صديقي الإيرلندي الذي حُكم عليه بالأشغال الشاقة بسبب مثليته الجنسية. خرج من السجن منهكاً ومكسوراً تماماً، مات بعد ذلك بقليل في فرنسا. لا أحد يلتفت إليه، لا أحد يقف ليلقي التحية. من يقرأ وايلد على أيّ حال؟ قبل أن أعيش في الغرب، كنت أعتقد أنهم يقرؤون كثيراً. هذا هراء، معظم الناس هنا تنفق وقتها في تفاهات التلفاز والإنترنت والكحول. يجلس وايلد وحيداً في قلب العاصمة التي خانته؛ وحيداً كما كان يوم حوكم؛ وحيداً مثلي، مثلنا جميعاً، نحن الغريبون في غربة الغرب.

أترك وايلد، بعد أن أمسح على شعره وأنظّف جمجمته، وأتجه إلى ساحة «الترافلغر سكوير».

أجلس على دكّة شبه فارغة مع السياح كأنني أستمتع مثلهم بالشمس، وبالعظمة البريطانية الإمبراطورية. أُسودٌ وفوارس وأحصنة تطالعني من كل زاوية؛ يخفق قلبي بحزن. تمجيد الماضي الإمبراطوري الاستعماري والاحتفاء بالقتلة يُبهج السياح والسكان الأصليين، وحتى أحفاد الضحايا. أتجاهلُ الأمجاد القديمة وأفتح «الكيندل»، الكتاب الإلكتروني، على مختارات من شعر أبي تمام. دائماً كانت قراءاتي متفرقة ومتباعدة للشعر العربي، في السنوات الأخيرة شعرت بتأنيب الضمير، لطالما رغبت بقراءة ديوانَي أبي تمام وأبي نواس. أقرأ الآن مختارات، عسى أن يأتي يوم أتفرّغ فيه لهما؛ ولكنني أكره المدائح المطوّلة: لن أقضي العمر قارئاً مدائح هزيلة في مجرمين بليدين.

جلستُ على الحافة لأقرأ:

أَرَاكَ أكبَرْتَ إذْمَانِي على الدمَنِ
وحَمْلِيَ الشوقَ مِنْ بادٍ ومكتمنِ
لا تُكثرنَّ ملامي إنْ عكفتُ على
رَبْعِ الحَبيبِ فلَمْ أعكف على وَثَنِ
سلوتُ إنْ كنتُ أدري ما تقول إذنْ
مجَّتْ مقالتها في وجهها أذني
الحُبُّ أَوْلى بِقَلْبي فيِ تَصَرُّفِهِ
مِنْ أن يُغادِرَني يَوْماً بلا شَجَنِ
حَلَبْتُ صَرْفَ النَّوَى صَرْفَ الأسَى وحَداً
بالبَثّ في دَوْلةِ الإغْرامِ والدَّدَنِ
فما وجَدْتُ على الأحشاءِ أوقدَ مِنْ
دَمْعٍ على وَطَنٍ لي في سِوَى وَطَني

صَـيَّـرْتُ لـي مِـنْ تَـبَـارِي عَـبْـرَتـي سَكَناً
مـذْ صـرتُ فـرداً بـلا إلـفٍ ولا سكنِ
مَـنْ ذَا يُـعظـمُ مِـقْـدَارَ الـسُّـرورِ بِـمَـنْ
يـهـوى إذا لـم يعظّم موضع الـحـزنِ؟
الـعـيـشُ والـهـمُّ والـلـيـلُ الـتـمـامُ معاً
ثـلاثـةٌ أبـــداً يُـــقـــرَنَّ فـــي قـــرنِ

أُتابعُ النميمة بين فتاتين تجلسان بجانبي، بدينة مرحة وفاتنة باردة، عن أخت البدينة التي تخون زوجها. أُردِّدُ لنفسي، «إدماني على الدمن». تقول البدينة إن أختها التقت بعشيقها في حفل عيد ميلادها، وإنها تشعر بالذنب. أُعيد قراءة البيت الثاني، «لا تكثرن ملامي إن عكفت على ربع الحبيب، فلم أعكف على وثن». تتابع الفتاة شارحةً أنهما مارسا الجنس في غرفتها وكلاهما ثملٌ. في القصيدة قوةٌ محببة، بالرغم من النبر الحزين. دخلت البدينة الغرفة بعد انتهاء الحفل، وكلاهما عارٍ؛ لم ينتبها لها. أصبحتُ أكثرَ حساسية اتجاه كل ما يكتب عن الغربة في الأدب، للمتنبي والبحتري وأبو تمام وأبو نواس قصائد في الغربة، كنتُ أقرؤها بملل. اليوم أصبح لهذه القصائد معنى. تقول الفاتنة إنه لا مشكلة في أن تتسلى الأخت قليلاً، وتضحكُ بخبث. ترتبكُ البدينة. لبعض الشعراء والفنانين بصمةٌ في كل ما يكتبونه ويصنعونه. نُحبُّ هؤلاء حتى لو لم نُحبَّ كل أعمالهم. تقول البدينة إنها تكره الخيانة. للشعر القديم سحرٌ وموسيقا لا يدركها الشعر الحديث. أصبحتُ محافظاً بالمجمل في ذوقي الشعري والفني. تقول البدينة إنها محافظةٌ أيضاً. تقهقه الفاتنة بلؤم، «ربما لأنك لم تجرّبي كثيراً من الأمور في هذه الحياة».

أتركهما وأذهبُ إلى محطة المترو.

في المحطة، لندن أخرى. تحت الأرض، مدينةٌ بناها الفقراء

للأغنياء في القرن التاسع عشر. الكل في عجلة من أمره؛ وجوه الناس تذكّر بقصائد لوركا النيويوركية. أخشى السفر، فقد اعتدت الحياة هنا. أترك بريطانيا إلى تركيا، وأعرف أن قدمي لن تطأ تراب بريطانيا العظمى مرة أخرى. لا فيزا للسوريين في هذا البلد. كنت من المحظوظين الذين حصلوا على فيزا للدراسة قبل الثورة. تقول لندن إنها لا تبالي كثيراً بمصيري. أستطيع البقاء هنا، إن أردت؛ وأستطيع الرحيل، بالطبع. أخرج من محطة المترو في «شيبردز بوش»، حي الأفارقة والعرب الأفقر والبولنديين. شيءٌ من الطمأنينة تبعثه فيَّ الوجوه السمراء واللهجة السودانية الكسلى في المقاهي. في المجمّع التجاري الضخم الجديد حيث تقع محطة المترو، زبائن مختلفون عمّن يسكن على بعد أمتار منهم، كالفارق بين مزّة فيلات ومزّة بساتين. أفكر أن الطبقات لا تختلط في المدن الكبرى، سواء في بيروت أو لندن أو اسطنبول. العامل السوري في المطعم اللبناني الذي أرتاده يعيش بشكل غير شرعيّ منذ ستّ سنوات في البلد؛ قدّم طلب اللجوء مُدّعياً أنه هرب من سورية، وقُبِل طلبه سريعاً. كان ذلك قبل سنتين؛ اليوم، ومع ازدياد أعدادنا، أصبحت الأمور أكثر تعقيداً وتستلزم وقتاً أطول. أخوه في اليونان هارباً من الخدمة العسكرية مُنتظراً خطة الوصول إلى لندن؛ أخوه الثاني مع عائلته في تركيا؛ والداه لجأا إلى الأردن، ثم عادا إلى قريتهم في حوران حيث يعيش أخوه الثالث وأخته مع عوائلهم؛ لن يغادروا أبداً، يخبرونه في ساعات الشدة والقصف. أطلبُ «مصقعة» وسندويش كفتة. عراقيٌّ يلعن جاره المصري في السكن. يوافق العامل السوري، «كل المصريين ذليلين وبلا أخلاق». يدخل بعض الأجانب، يعاملهم السوري بلطفٍ شديد؛ فيما العراقي يعلّق بالعربية على صدر المرأة الناهد، وعلى قفاها. يضحكُ للزوج وهو يكرر: «ويلكم، ويلكم. يا قرن»، يضحك بقية العرب.

أُنهي طعامي وأخرج إلى الشارع شبه الفارغ.

تفلتُ المدينة التي كنت أريد وداعها من يدي، أية مدينة هي لندن، إذاً؟ لندن «ساحة أوكسفورد» و«بيكاديلي»، حيث العظمة الإمبراطورية وعشرات آلاف السياح؟ أم لندن «هاكني» و«شيبردز بوش»، حيث السود والأتراك والبولنديون وغيرهم من المهاجرين؟ لندن المتاحف؟ لندن المطاعم الراقية التي لم أزرها؟ مقاهي الفنانين و«الهيبيز» في «الكامدن تاون»؟ القوارب/المكتبات حول «أنجل»؟ أقفُ على ناصية الشارع، خلفي أعمال صيانة وشباب سُمر يعرقون كما نعرق في بلداننا. فتياتٌ بولنديات شبه عاريات يعبرن الشارع أمامهم. ولكن، أسأل نفسي محتاراً ومحبطاً: هل كنتَ تعرفُ دمشق يا فتى؟ أيّ دمشق تلك؟ المالكي وأبو رمانة؟ مطعم «فيرساي» أم «نارنج»؟ أم دوما وحرستا وعربين اللواتي لم أزرها منذ عشر سنين؟ زحمة البشر في ساعة الذروة تحت جسر الرئيس وركضهم كالممسوسين من ميكرو إلى آخر؟ أم السيارة المكيّفة التي كنت تطل منها عليهم؟ عشرات المثليين ينتشرون في الحديقة المظلمة المجاورة لجسر الرئيس وفي الشعلان، يتصيّدهم الأغنياء ورجال الشرطة والمخابرات. في ساحة «المرجة» العاهرات ووزارة الداخلية. طُهّرت «المرجة» مع التحديث والتطوير؛ وانتقلت العاهرات الشقيّات، مع رجال الداخلية والمخابرات والسياح والزبائن المحليين، إلى الضواحي. لا مكتبات ولا سينمات تتذكرها في دمشق، مقهى «الكمال» وحده يستقبلك يومياً.

أيّ دمشق تعرف يا فتى؟

أَصِل إلى منزل صديقي اليوناني، صديقي الوحيد في هذه المدينة. أحضّر معه عشاءً من الدجاج والأرز. بعد العشاء أغفو ونحن نشاهد فيلماً لديفيد لينش، يوقظني مع نهاية الفيلم، أَبتلعُ حبتَي سيتامول قبل النوم. أنامُ على الكنبة في غرفة الجلوس، وعلى الحائط خلفي صورة كبيرة للبيتلز.

أحلم بأنني أستيقظ على صوت المؤذّن في قدسيا، ولكنني أدرك أن لا أذان في لندن. يواسيني صوتٌ هادئٌ بالعربية الفصحى:

«لا تخشَ شيئاً يا فتى، لستَ وحدك التائه في هذا القفر الكبير المسمى العالم الواقعي. تذكّر ما قلت لكم في نصائح للشباب: (وحدهم السطحيون يعرفون أنفسهم)».

يغادرُ أوسكار وايلد الغرفة، بكامل أناقته وعنفوان شبابه.

أعتدل في جلستي، وأشعل سيجارة.

أفتح الدفتر الذي أحتفظ فيه بمختارات من كتّابي المفضلين باحثاً عن بيت شعر قرأته في القطار البارحة.

يواسيني أبو تمام بثقة أفتقدها بشدة:

هِممُ الفتى في الأرض أغصان الغنى
غُرستْ وليستْ كلّ عامٍ تُورقُ

أعود إلى النوم تدريجياً.

أغفو مطمئناً بعمق.

مرثية

(نشرت في «الجمهورية» في 27 آب 2015)

(1)

توفّيت جدتي في دمشق في الأول من شباط 2015.

«بوست» على الفيسبوك أعلَمَني بوفاتها.

دُفِنَت جدتي صباح اليوم التالي. أُقيمَ الجنّاز بمن حضر. أنا وأخي وأختي وأبي وخالتي وزوجها وابنها الأكبر لم نستطع الحضور؛ أخوالي الاثنين وعائلاتهم وابن خالتي الأصغر وأمي تولّوا أمور الدفن والعزاء.

من عائلتنا الصغيرة، أمي وحدها دفنت أمها، وغادرت بعد أيام قليلة.

(2)

جدتي هي الأخيرة من أجدادي الأربعة. توفي زوجها ـ جدي ـ مبكراً في بداية الثمانينيات؛ لا ذكريات لي عن جدي. بالمقابل، أذكر أن جدتي كانت دائماً حاضرة، على الرغم من أن الواقع يقول إنها غابت لسنتين أو ثلاث عن طفولتي المبكرة.

لم تكبر جدتي مذ كنت طفلاً؛ كبرتُ أنا وأمي.
لا تكبر الجدات في عيون أحفادهنّ.

(3)

كنتُ الحفيد المفضّل لجدتي، أو هذا ما اعتقدته. لا أقصد أنها كانت تفضّلني عندما كنا أطفالاً على بقية الأحفاد، ولكن منذ كبرتُ وأنا أزورها مرةً أو مرتين أسبوعياً. هكذا أصبحت المفضّل والمدلّل. تُعِدّ جدتي القهوة ونجلس على الشرفة لنثرثر ساعةً أو ساعتين وحدنا.

حكت لي جدتي عن طفولتها ومراهقتها وزواجها وأسفارها وعائلتها الكبيرة. الآن لا أتذكر إلا أجزاءً مبعثرةً من قصصها المكررة والمفككة. تقفز جدتي من قصة إلى أخرى ولا أستطيع أن أقنعها بأن تتابع القصة الأولى التي بدأتها. مع اعتيادي على أسلوبها السردي توقفت عن مقاطعتها، أستمع لها وأنا أشرب قهوتي متأملاً ساحة شمدين، ويديها الأنيقتين.

احتفظت جدتي، وهي في الثمانين، بأناقة حركات يديها الشابتين.

(4)

ولدت جدتي لعائلة مسيحية حمصية ذات ثراءٍ معقول. لا نعلم بالضبط تاريخ ميلادها، إلا أننا نخمّن أنه في بداية الثلاثينيات من القرن المنصرم. في ذكريات جدتي عن طفولتها، بيتٌ فسيح وكَرَمٌ أصيل وخيول عربية وأقبية ممتلئة بالطعام، وعشرات الأطفال يلهون في ظل الأب. كانت جدتي شديدة الإعجاب بأمها التي توفيت منذ ما يقرب خمس عشرة سنة وقد تجاوزت التسعين، تلك المرأة التي تتكلم الفرنسية وتتابع أخبار العائلة والجيران بتفاصيلها، والتي بقيت ـ بحسب جدتي ـ تجيد الخياطة والطبخ على الأصول إلى ما قبل وفاتها بأيام. لم أرَ هذه

المرأة الأسطورية يوماً. عَرَضَت عليّ جدتي مرةً أن أذهب إلى حمص لأراها. تذرّعتُ بأسباب واهية.

لا أستطيع اليوم أن أتذكّر ما هو الأمر فائق الأهمية الذي منعني من التعرّف على والدة جدتي.

تزوجت جدتي وهي في السادسة عشرة تقريباً، وانتقلت إلى حماة مع جديَ الحموي، ميشيل. كانت حماة مدينةً محافظة؛ هناك اضطرت لوضع الحجاب إن أرادت الذهاب إلى الأحياء المسلمة. بعد وقتٍ لم يَطُل، أحبّت جدتي الناس في حماة لطيبتهم وكرمهم وصدقهم. لاحقاً، أخبرتني جدتي أنهم انتقلوا إلى دير الزور لسنوات، حيث ولدت أمي، «آخر العنقود». قالت جدتي إن دير الزور أكثرُ انفتاحاً من حماة، ولكنها بقيت تحنُّ إلى حمص.

لم ترتح جدتي حقاً إلى أن انتقلوا إلى دمشق؛ هنا وجدت روحُها مستقرّها في حي الأكراد.

(5)

أحاول أن أسترجع بعض قصصها. تأخر الوقت، ولا أحد هنا من العائلة ليؤكد لي أن ما أتذكره يتطابق مع ما قصّته علينا، أو، وهو أمرٌ يكاد يستحيل تأكيده، مع الواقع.

تقول جدتي إن أحد رؤساء الجمهورية السابقين في الستينيات زارهم في منزلهم. تضحك جدتي على ارتباكها ذلك اليوم. أتى الرئيس وشرب القهوة في هذه الشرفة ذاتها. خافت جدتي منه ولم تتبادل معه الكلام؛ انتظرت في المطبخ. تقول إنها كان يجب أن تسأله عن زوجته وأولاده. أتى الجيران لاحقاً مستفسرين. اضطرت جدتي إلى تبهير الحدث الصغير: «أجل، كان مهيوباً. أجل، كان ذكياً. بالطبع، كان مميزاً. آه، زوجي كان

مرتاحاً بالطبع. نعم، نعم، زوجي يعرف المسؤولين جيداً». تضيف بفخر، «ولكن جدك لم يكن من أولئك الذين يلاحقون المسؤولين. كان محترماً ويحبه الجميع». تسكت قليلاً وكأنها تستحضر طيفه، «الله يرحم جدك. يا ريت كان فيو يتعرّف عليك يا عدي»، تصمت مطوّلاً وهي تتأمل سماء دمشق.

تقول جدتي إن أحد أبناء عمومتها ترك سورية وهو في السابعة من عمره، «اضطررنا إلى تهريبه إلى أوروبا. أجل، كان يلعب مع المسلمين وتشاجروا. المسيحي سبّ دين المسلم، المسلم جمع عائلته وأبناء حيّه. كانوا يريدون أن يضربوا الفتى ضرباً مبرحاً. لم تهدأ القصة لاحقاً. أجل، سافر ولم يعد». تضحك جدتي، «معقول العالم شو عقلها صغير، حدا بيتخانق مع حدا ميشان الدين!». أصبح الفتى جدّاً ويعيش حياةً هانئة.

تقول جدتي إن الفرنسيين كانوا يفتّشون بيت جدها باحثين عن الأطفال لإرسالهم إلى المدارس. جدها رفض إرسال بناته. خبّأ الأب البنات في سقيفة. إحداهن نادت للجندي الفرنسي. أُخذت البنات للمدارس. الأب عاقب البنت بشدة، ولكنهن حصلن على التعليم في النهاية. تضحك جدتي مضيفةً: «شوف كيف كان الناس يفكروا. قال ما لازم البنات يتعلّموا».

تقول جدتي إن السوريين كانوا يعلّقون الشرشف الأبيض الملطّخ بالأحمر على باب البيت ليلة الدخلة. تضحك بشدة وهي تتذكر شيئاً لم تقله لي: «شو بشعة هالعادة. منيح بطّلوها». تعود للضحك بقوة، أضحك أنا دون أن أفهم شيئاً مما تقوله عن الناس والخجل والعائلة والجيران، «منيح يلي بطّلوها. ولي شو كانت بتخجّل الصبايا!».

(6)

حلمت جدتي بأنني أزورها في الفصح، كانت دائماً تقبّلني في

الأعياد مرددةً أدعيةً مسيحية لم أكن يوماً قادراً على فكّ طلاسمها. تضحك وهي تخبرني أنني أكلت صينية الكبّة وحدي، رافضاً أن أشاركها مع أحد من العائلة.

«اشتقتلك يا عدي، والله اشتقتلك كتير!».

أسمع خالي هامساً بشيء ما.

تصمت جدتي مرتبكةً.

تهمس: «ما رح ترجع لشوفك؟».

«انشالله، انشالله قريباً يا تيتا!».

(7)

أقول لجدتي في أحد الأعياد إنني لا أؤمن بقيامة يسوع؛ تضحك بصفاء.

«مو مشكلة يا عدي بشو بتآمن، المهم تكون منيح مع الناس».

(8)

استشهدت ابنة خالي بقذيفة هاون عشوائية آتية من الغوطة، متزوجةٌ حديثاً لم تبلغ الثلاثين بعد.

كلّمتُ خالي مرتاعاً: «مرحبا خال. أنا عدي».

«مين؟ ما عمبسمعك».

أكرر بصوتٍ ميت: «عدي خال. عدي».

«إيه، أهلين عدي».

نصمت كلانا.

«العمر إلك خال».

انفجرَ خالي صارخاً: «هي الحرية تبعكون يا عدي. هي الحرية يلي بدك ياها أنت ورفقاتك. هي الحرية، ما؟ هي الحرية؟».

صمتَ خالي باكياً متفجّعاً.

ختمَ برقةٍ حادةٍ كنصل السكين: «دير بالك على حالك يا عدي. دير بالك على حالك. الله يحميك. الله يحميكون كلكون. دير بالك على حالك. الله يحميك. دير بالك على حالك ميشان الله...».

في اليوم التالي اتصلت بجدتي.

أنهت المكالمة بعد دقيقتين.

لم تجد ما يقال.

(9)

لم تغادر جدتي سورية قط، على ما أعرف.

(10)

في عيد الميلاد وفي الفصح، تشرب جدتي كأس عرقٍ صغير، وتضع بعض المكياج والحمرة الغامقة. تحتفي جدتي بأبنائها وأحفادها بأطايب الطعام. على مدى عقودٍ كانت ترسل لنا المونة التي تصنعها بنفسها، تحديداً المربى والمكدوس.

كانت تصبغ شعرها دائماً، وتستقبل ضيوفها بكامل أناقتها، مهما اشتد مرضها.

أحبّت جدتي الحياة ما استطاعت إليها سبيلاً.

(11)

تزوج أبي من أمي «خطيفة».

قاطعها الأهل لمدة سنتين أو ثلاث، قبل أن يستقبلوها بالترحاب مع زوجها وأبنائها.

سألتُ أمي: ما الذي فعلته جدتي في هذه السنين؟

قالت إنها يوماً تلقّت اتصالاً هاتفياً، لم يقل المتصل شيئاً. أحسّت أمي أن المتصلة جدتي؛ بكت أمي وهي تقول لأمها إنها عرفتها.

سمعت أمي بكاء أمها على الطرف الآخر.

لمدة سنتين أو يزيد، كانت أمي تبكي وأمها بصمتٍ على الهاتف.

(12)

غادرتُ دمشق دون أن أودّعها، مؤملاً زيارة قريبة. كنت أخشى، وتخشى، أن تموت قبل أن أراها.

عرف كلانا أنني لن أراها مرةً أخرى.

لم أكن أريد من الوحدة الوطنية أكثر من زيارة جدتي في الفصح: بيننا أربع سنوات من الحرب، وتعويذة المنفى معلّقةٌ فوق رأسي، وابتسامتها التي تداوي جروح يسوع على الصليب.

(13)

كبرت جدتي في منفاي فجأةً؛ انتظرت كل هذا الزمن لتكبر من وراء ظهري. لم تكن لتهرم هكذا لو بقيت في دمشق معها.

عادت أمي إلى دمشق كي تودّعها. لم أكلمها مع اشتداد مرضها؛ انشغلت بالكتابة والدكتوراه وأمور الحياة اليومية.

ربما لم أصدّق أنها سترحل حقاً.

يقول أبي إن الموت دائماً يأتي فجأةً. لا يصدّق أهل المريض أنه سيموت مهما اشتد مرضه، يفجؤهم الموت كأنهم لم يفكروا به أبداً.

«يمكن هيك طبيعة الناس يا بابا، بيجنّ الواحد إذا صدّق إنو أبو أو أمّو أو حبايبو رح يموتوا. بينسى القصة لحتى يجي الموت. يالله، صبّر حالك وحاكي أمك!».

ماتت جدتي فجأةً، كما يموت جميع الناس.

(14)

مثل اسبينوزا وابن عربي، آمنت جدتي بوحدة الوجود.

ترى جدتي أرواحاً شبه بشرية في كل الحيوانات. تحبّ الأرانب والقطط والكلاب والخيول والسلاحف. تطعم الحمام كل يوم على شرفتها. تتحدث إلى النباتات واحدةً واحدة، تخبرها بقصصها مع اشتداد وحدتها. تطعم السلحفاة وتقول إنها تتفهّم بطأها وضجرها. تطلب من الحمامات والعصافير أن يسلّمن على جدي.

عاشت جدتي مع قطتها «سوزي» ثماني عشرة سنة تقريباً. كانت سوزي صديقتها المفضّلة، ولها كرسيها الخاص في غرفة الجلوس. تقف سوزي أمام كرسيّها عندما يحتله الغرباء. غالباً ما اضطرت جدتي أن تشرح للضيوف أن هذا كرسي القطة. كانت القطة تتودد لمن ترتاح له جدتي وتهاجم من يخاصمها.

عندما توفيت سوزي، عزَّينا جدتي التي بقيت تلهج باسم قطتها زمناً طويلاً.

(15)

غادرتُ دمشق في الأول من آب 2011. بعد ذلك كلّمت جدتي مراراً في الأعياد، وعندما أشتاقها. كان صوتها يسوء مع الوقت، شيءٌ من الحزن والمرارة يحمله الصوت.

لم تفهم جدتي ما الذي حدث في بلدها. الجيران الأكراد يتظاهرون باستمرار، والأمن يقتحم الحيّ كل أسبوع؛ فيهم المعتقل والشهيد والهارب. تشرّد أهلها الحماصنة وتوزعوا بين دمشق وحلب وبيروت ودبي، وفي الغرب أيضاً: منهم المعتقل والمخبِر والصامت والحائر والمتعاطف والخائف والغاضب. يخبرها التلفاز عن مجازر طائفية في حمص وغيرها من المدن السورية. بيتها شبه خاوٍ، ومن بقي في الوطن يعادل من أصبح في المنافي: توزّع أبناؤها وأحفادها في جهات الأرض الأربع، وبعضهم لا يكلّم بعضهم الآخر. تعيش أيامها الأخيرة مع ذكرياتٍ تختلط بحاضرٍ يبتلع تدريجياً كل ما تعرفه عن هذا الوطن الحزين، لتصبح غريبةً في منفى.

أنهت جدتي حياتها وهي في حيرة من أمرها؛ ألم يكن للثمانين حولاً الذين عاشتهم معنىً تطمئن إليه قبل رحيلها؟

(16)

مع اشتداد الأزمة الاقتصادية في الثمانينيات، كانت جدتي تخيط بعض الأقمشة الشرقية التي تزيّن الطاولات وغرف الجلوس، وتبيعها سراً كي تساهم في مصروف البيت.

(17)

في أحد أيام الربيع كنت أجلس على شرفة جدتي ممازحاً إياها كالعادة في أمور الريجيم؛ تأكل جدتي الموالح طوال اليوم، وتعاني من السمنة.

كانت تسقي نباتاتها وتكلّمها وتكلّمني معاً. تسألني عما إن كنت أتابع المسلسلات التلفزيونية، أقول إنني لا أشاهد التلفزيون؛ تأسفُ لذلك، المسلسل الجديد لجمال سليمان رائع.

الساعة التاسعة والنصف صباحاً.

عند دخولي ضَبَطتُ جدتي متلبّسةً وهي تضع ركوة القهوة مع فنجانين، سألتها لمن الفنجان الثاني الذي جلبته قبل دخولي.

ابتسمتْ بخفر.

قالت أمي إن جدتي تشرب القهوة كل صباح مع طيف جدي، بالرغم من مرور عشرين عاماً على وفاته.

«لجدو القهوة؟».

أشرقَ وجه جدتي بشبابٍ خالد، كما في صورتها بالأبيض والأسود من خمسينيات القرن الماضي.

للحظاتٍ رأيت طيف جدي يبتسم لي، ثم يتأمل زوجته بشغف.

ذهبتْ جدتي إلى المطبخ ضاحكةً.

بقيتُ وحدي على الشرفة أتأمل دمشق الحب والحنين، دمشق الحرائق؛ دمشق التي، ربما، لن أعود إليها.

عنتاب، خيمتنا الأخيرة

(نشرت في «الجمهورية» في 11 أيار 2015)

«مية السلامة»

«مية السلامة!»، تقول شذى مبتسمةً.

تركض بين الطاولات وعلى الدرج، لتعود بعد دقائق بالابتسامة المرحة نفسها.

على طاولة مجاورة امرأة محجّبة وحيدة، وعلى طاولة أخرى عائلة ديرية تملأ المكان بصخبها.

يشرح لي الشيف الحمصي الفارق بين الماريا والتوشكا، الأولى تأتي مع صلصة حمراء، أما الثانية فهي مع الجبنة. يحلف أن التوشكا هنا هي ذاتها التي كنا نأكلها في «الفردوس» في حمص. أتظاهر بأنني أعرف المطعم المقصود.

لهجة شذى الحلبية في المطعم الحمصي تمنحها عذوبة خاصة. يتذمر الديرية من غلاء الأسعار. تأتي أصوات ضاحكة من الطابق السفلي. المرأة الوحيدة تأكل ببطء ودون شهية.

ربيع عنتاب يجعل الجو في الليل ساحراً.

بعد سنوات من الغربة في بريطانيا، تعلّمت أن أستمتع بنسمات الربيع أينما كنت وكيفما أتت.

صوت أم كلثوم البهي يصدح بقوة، ويسحر عمال المقهى ورواده الشباب في المنفى، مشوّشاً ما بقي من توازنهم النفسي: «هو العمر إيه غير ليلة زيّ الليلة!».

ها أنا في عنتاب، عاصمة الثورة، كما يقول الأصدقاء ساخرين. تجنّبت زيارة المدينة على مدى السنوات الماضية، لم أشعر بأنها ستقدّم لي شيئاً. وصلت إلى المدينة وكرهتها فوراً. عنتاب مدينة قبيحة، تحمل كل سمات التوسع العمراني غير المدروس، واللجوء السوري بفقرائه ونشطائه، إضافة إلى قباحة المدينة القديمة المتواضعة.

يردد الأصدقاء أن عنتاب تشبه حلب.

«شو جاب لجاب يا جماعة. شو جاب لجاب!»، أقول بغضب.

يردد البعض بصوت خجل: «ولكننا نحب عنتاب».

أصمت منتظراً بقية الكلام.

«المدينة هادئة وصغيرة ومحافظة. تشبهنا، تشبه سورية».

فجأة أرى ما لم أره من قبل: معظم السوريين لم يغادروا سورية من قبل. بالنسبة لهم، عنتاب مدينة كريمة تستقبل الجميع برحابة صدر لم نجدها عند الإخوة العرب.

«كل المدن متشابهة في نهاية الأمر. إن كنت ربّ أسرة، فكل ما يلزمك وظيفة جيدة ومدارس محترمة لأولادك. كل المدن متشابهة ومتساوية يا صديقي»، يقول الرجل الأربعيني بحكمة.

هذا ما سمعته من أساتذتي في الجامعة في الريف الإنكليزي أيضاً.

تلبس شذى المعطف وتعبث بهاتفها.

«مع السلامة يا شذى!».

«مية السلامة!»، تقول بابتسامة واثقة.

تبقى المرأة المحجّبة وحيدة تراقب صحنها نصف الممتلئ البارد.

غادرت شذى المطعم في الساعة العاشرة ليلاً. لم أرَ فتيات يعملن في مطاعم أو مقاه في سورية، إلا نادراً. كنّ دائماً مرهقات نتيجة تحرش الرجال المستمر بهن. الأمور هنا مختلفة، كما يبدو.

لم أجد الفرصة لأسأل شذى إن كان الحلبية يستقبلون الناس بـ«مية السلامة»، أم أنها فلتة لغوية تختص بها وحدها.

داعش وأردوغان ونجوم الليل السهران

أردوغان وداعش يحضران في كل مكان، من اللاجئين الأفقر إلى الناشطين والكتّاب والمحلّلين والزوار وعاملي المنظمات غير الحكومية.

«أردوغان استقبلنا وفتحلنا بوابو. أكتر من هيك شو بدنا؟!».

أبتسم لمضيفتي مشجّعاً.

تشرب من قهوتها، تعدّل حجابها، وتتابع: «إذا راح أردوغان، تاني يوم كلنا منتقلّع، الله وكيلك متل ما عمقلك».

«نحنا هون بضيافتو، وما رح ننسالو هالجميل»، تؤكد الفتاة الأصغر سناً.

«يعني إيه، أحوالنا ممكن تصير أصعب إذا راح أردوغان. هلق أنا ما بحبو، بس ما فيي ما فكّر بحالنا كمان. معارضي أردوغان فاشيين، سواء يسار أو يمين».

يشعل المحلل سيجارة أخرى، ويتابع: «يمكن قدرنا هاد أنو نضل مع الإسلاميين وين ما رحنا؛ يمكن هاد بيقلك شي عن مستقبل سورية».

مع كأس البيرة الثالث، تنفتح قريحة الناشطة: «أكيد أنا علمانية وإذا كنت تركية مستحيل صوّت لواحد متل أردوغان. بس الواحد ما بيقدر ما يفكر بهالناس المساكين وين بدها تروح. هلق أنا واثقة أنو أردوغان فوّت داعش والنصرة...».

أقاطعها: «في معلومات ووثائق؟».

«أنت بس شكّك... لأ سيدي ما في معلومات، بس مبيّنة متل عين الشمس!».

أردوغان بطلنا الشعبي، القائد الرمز في زمن عزّ فيه الرجال، الصدّيق المقدام الفاروق المنزّه، حامي حمى الإسلام، المعتصم دون جيوش ولا رماح. أردوغان نجمة على صدر الليل الحالك، على وجه القمر، كصورة الإمام علي في الأساطير الشيعية. قلوب السوريين المساكين المكسورة يجمعها حبه، وكره داعش.

«أكيد أنا بكره داعش. ولاد الحرام مانعين العالم تلمّ محصولها»، تقول المرأة.

«عمي صاروا حابسينو تلات مرات، وكل مرة حجة شكل. قال لازم يعلّم بناتو الحشمة»، يقول الشاب.

«هلق لا داعش ولا النصرة بتعلّمنا ديننا. نحنا منعرف ديننا منيح»، تقول أم المعتقل.

«متل ما عمقلك، في دواعش معبا هون، وفي عندون خطط ليغتالو ناشطين وسياسيين سوريين»، يقول الصديق.

لا أستطيع مقاومة الابتسامة: «والله مو كتير زابطة أنو داعش بدها تغتال العالم بعنتاب. يعني كلنا عبعض بعنتاب مو شايفينا!».

«أنت ما بتعرف شي. عنتاب معباية مخابرات، سورية ومصرية وأميركية وتركية، وداعشية يا سيدي».

معظم من التقيتهم أكّدوا هذا الأمر، ولكن لا معلومات موثوقة قدّمها أي منهم.

أيضاً، باستثناء الناشطين وعاملي المنظمات غير الحكومية، يخبرني السوريون أنهم يخشون السهر في المدينة. لا أمان هنا، على الرغم من الظواهر.

«أنا برأيي داعش صنيعة إيران».

«متل ما عمقلك، صنيعة أميركا».

«النظام مسؤول عن داعش، كلهم عملاء للنظام».

«متل ماني شايفك، السعودية وتركيا وقطر خلقوا داعش».

«من يومين شفت شب هون واشم عإيدو: (باقية وتتمدد)! قسماً بالله ما بيفوت غير ما يكونو التراك عرفانين».

المعابر مغلقة منذ شهرين، وقصص دخول دواعش جدد إلى الرقة ما زالت تتردد هنا. بلى، هناك بعض التشديدات، ولكن ما زال بالإمكان الالتحاق بداعش.

المعابر مغلقة، أي أن الدخول غير الشرعي هو السبيل الوحيد إلى سورية. يعتقد الناس أنها ستُفتح بعد الانتخابات. أيضاً، السلطات التركية في عنتاب أوقفت إصدار بطاقات السوريين المعروفة بالكيمليك. لا يعرف السوريون بالضبط ما هدف هذه البطاقات، لماذا تم إصدارها، ولماذا توقّف في عنتاب وليس في باقي المناطق. البطاقة تسمح للشخص بالتحرك داخل البلد وبالحصول على طبابة مجانية. من دونها، خصوصاً لمن لا يملك جواز سفر، تصبح الحياة مستحيلة.

في المقهى الواقع في قلب الحديقة، يخبرونني أن سلطات حزب العدالة والتنمية أوقفت شرب العرق هنا. لا يوجد قرار واضح، ولكنها تضييقات تدفع أصحاب المطاعم إلى الانصياع.

من طاولة بعيدة تأتينا أصوات نقاش حاد بين سوريين حول داعش.

فجأة يقول الشاب الجالس قبالتي: «شو سألو؟ كم مسيحي داعش فيها؟».

«كم مسيحي داعش قتلت... كم مسيحي داعش قتلت؟ شو بنا؟».

ننفجر ضاحكين.

تتلاشى ضحكاتنا في العتمة.

نجوم الليل السهران وحدها تنصت لقهقهاتنا الحزينة.

ناشطون وناشطات ونشاطات ثورية

يتمتع الناشطون والناشطات بسمعة سيئة بين السوريين؛ التهم متنوعة: من حصولهم على رواتب خيالية من المنظمات غير الحكومية؛ ما يُشاع عن فسادهم؛ تناحرهم الدائم الأزلي؛ عمالتهم للجهات الداعمة ومن يقف خلفها؛ أثرهم المعدوم، أو الضار حتى، على الثورة؛ وفي النهاية، تضخّم أنواتهم المرضي.

بالطبع، الناشطون موجودن في كل مكان، من اسطنبول إلى دبي إلى باريس ولندن وبيروت وغيرها من مدن المنفى السوري؛ ولكنهم يتركزون بنسبة كبيرة في عنتاب: هنا مقرّ المنظمات غير الحكومية لكونها المدينة الأقرب من سورية، حيث الحدود أقل انضباطاً من كل دول الجوار؛ كما أنها مقرّ الحكومة المؤقتة، وفيها إحدى أكبر نسب سوريّي المنفى في مدينة واحدة؛ إضافة إلى قربها من مخيّمات اللجوء في تركيا.

لم يكن هذا لقائي الأول مع ناشطين، ولن يكون الأخير، كما يبدو. من الظلم تعميم أي ملاحظات أو مشاهدات على كل الناشطين وعلى أنشطتهم المتنوعة، التي تتراوح ما بين خزعبلات تنويرية إلى تقديم

العون المادي إلى الداخل السوري بشجاعة منقطعة النظير، وما بينهما من طبابة وتعليم وتحرير المرأة وأنشطة إعلامية ممتازة أو بمنتهى التفاهة... إلخ. في عنتاب نجد كل أنواع المنظمات بلا استثناء، من المنظمات العاملة في الحقول الطبية والتعليمية، ومن أكثرها احتراماً إلى مشاريع النصّابين؛ كما تجد منظمات مرتبطة بشكل مباشر بدول، خليجية وأوروبية وغيرها، إلى منظمات غير حكومية تتمتع باستقلال واحترام عال، من «قاسيون» قدري جميل، إلى أطباء بلا حدود؛ إضافة إلى منظمات سورية تتعاون مع منظمات أجنبية للحصول على التمويل. التنافس على التمويل يسمّم الأجواء بشكل كبير، والرواتب العالية التي يتقاضاها العاملون تجعل الحقد والنميمة والعلاقات الشخصية الوصولية هي السائدة في هذه الأوساط. جزء كبير من المساعدات الآتية إلى الداخل، الطبية والتعليمية، تصل عن طريق هؤلاء بالطبع.

ولكن، ما يجمع الناشطين، على ما أعتقد، هو خسارتهم لأنفسهم في مجرى الثورة. تحوّل معظم الناشطين إلى نجوم إعلاميين تطلب المحطات الإعلامية المختلفة إفاداتهم. الأكثر نجومية بينهم يتجولون في العواصم الأوروبية لاستعراض بطولاتهم في أيام الثورة الأولى. هذه النجومية تُفقد الإنسان بعضاً من توازنه: أن يتحوّل شاب لم يبلغ الثلاثين بعد إلى نجم تلفزيوني وشخصية عالمية تطلبها هيلاري كلينتون لتناقش معها مستقبل سورية، ويعرض عليها الائتلافات والهيئات والمجالس السورية تمثيل الشباب، تعقد اجتماعات مع ميشيل كيلو وخالد خوجة وبرهان غليون وآخرين، ويتجمّع حولها معجبون ومعجبات مذهولون بحكمة وعمق وروعة الناشط أو الناشطة، لعمري أمور تدفع حتى المعرّي إلى التخلي عن زهده. يؤكد لي من هم أكبر سناً أن ما سبق أفقد الكهول توازنهم، فما الذي نتوقعه من الشباب؟!

الناشط، إذاً، يملك ميزة إيجابية سلبية في آن معاً، وهي أنه نشط في خدمة الحرية في فترة حرجة من تاريخ الشعب السوري، ولكن لم يُكتب له أن يفعل أي شيء آخر في حياته القصيرة. هكذا تتمحور ذاته حول نشاطه السابق. الملاحظ أن الناشط لا يستطيع إدارة أي حديث طبيعي: كل الكلام يعود إلى ما حدث في الأيام الأولى للثورة، وإلى المواقف السياسية المختلفة المطروحة اليوم، ورؤيته لها كثوري، ومعتقل سابق على الأغلب، إضافة إلى مرارة وسوداوية تكاد تلامس حماقات كيركيجارد الوجودية.

الناشط منتوج صعب الفهم للثورة السورية، وجزء أصيل ومحزن من مأساتها. في حين شارك معظم النشطاء بشجاعة منقطعة النظير في الثورة، وخصوصاً في أيامها الأولى السلمية، تحوّلوا مع مرور الوقت إلى عبء على الثورة. خُطفت من أعمارهم الغضة أربع سنوات تركوا فيها دراستهم وأعمالهم وبيوتهم. يقفون اليوم مع الثورة على مفترق طرق. إما أن يستعيدوا حياتهم من الثورة ويعيدوا بناء مستقبلهم المهني كما يريدون وبما يحلمون به، بغضّ النظر عن النشاط الثوري، أو أن يبقوا معلّقين في فضاء مدن المنفى.

النشاط الثوري، اليوم، يجب أن يُضاف إلى حياة تتأسّس بشكل ما خارج الثورة. أن يكون النشاط الثوري هو الحياة ذاتها، في ثورة فقدت بريقها الأول وأساليبها الخلّاقة، يجعل حياة النشطاء بأكملها تجري في هامش يتضاءل يومياً.

شحّاطة فاطمة

كانت فاطمة تجلس على الأرض. وجهها تغطيه بثور مختلفة الأحجام والألوان، ومعطفها الخفيف المهترئ بلونه الأحمر يجعلها أشبه بفتاة من

الرسوم المتحركة منها بمتسولة من لحم ودم. تبتسم لنا ونحن نعبر إلى المجمع التجاري «سانكو بارك». حين تبادلها خطيبتي الابتسام، تخفي وجهها بخجل. بعد ساعتين نعود لنرى فاطمة في المكان نفسه. أقترب منها فيما هي تبتسم مراقبةً الشقراء الغربيّة.

تتساءل فاطمة كيف يمكن لهذه الأجنبية أن تتكلم العربية. أشرح لها. لا ترفع فاطمة عينيها عن الشقراء الطويلة الواقفة أمامها. فاطمة من حلب، لا تتذكر متى غادروا المدينة بالضبط. أبوها متوفّى، وأمها تعيش مع إخوتها في غرفة. تأخذ فاطمة الليرات الخمس وهي تضحك.

تلتفت إلي وتقول: «هي الأجنبية حلوة. الله يخليلك ياها عمو!».

تبدو فاطمة من أسلوبها كبنت مهذبة حظيت بتربية جيدة.

«يعني عمو أنا حبيتها. هيك ناس ما بيطّلعو فيي بالعادة».

تنظر فاطمة مباشرةً في عينيّ؛ كأنها تسأل ما الذي حدث لنا ولماذا.

للسوريين سمعة المتسولين في دول الجوار: تمتلئ شوارع المدن بنا، أطفال ونساء وعجائز فرادى، عوائل بكاملها، فرق من الأطفال الهازلين القذرين؛ أمام المطاعم نتجمّع، على مداخل المحطات نتجمهر، في الأماكن السياحية نتكاثر كطفيليات غريبة؛ في الأردن الحوارنة، في لبنان الحماصنة، في تركيا الحلبية؛ يذلوننا ويطردوننا ويصدرون القوانين لتجميعنا وترحيلنا إلى أماكن لا مرئية، إلا أننا دائماً نعاود الظهور كمرض جلدي لا شفاء منه.

«فاطمة، أنا بدي أمشي. بدك شي؟».

«إيه عمو. بدي أشتري شحاطة جديدة ميشان العيد الجاية. شوف شحاطتي، خيّطناها من هون لأقدر أمشي فيها».

قدم السندريلا الصغيرة أقذر من الرصيف الذي نقف عليه.

يتنازع السوريون من الطبقات الوسطى والغنية، وغيرهم من الأشقاء

والجيران، نازعان مختلفان في العلاقة مع المتسولين السوريين. يميل فريق إلى أن كل المتسولين يعملون ضمن شبكات لصوص تضمن لهم حياة معقولة، وأننا يجب ألا نشجعهم. إن امتلكت المال، تبرّع به لمنظمة واضحة المعالم. أما الفريق الآخر فيشكّك بحجم الشبكات، ويميل بالمجمل إلى تقديم الأموال للمتسولين، خصوصاً الأطفال والنساء والعجائز. حتى لو كانوا يعملون ضمن شبكات، هذه الأموال تصلهم بشكل ما، ولو لم يكونوا حقيقةً في فقر مدقع لما انتهوا إلى هذه الشبكات.

أنا أميل إلى الفريق الثاني.

هناك فريق ثالث يقع بين الفريقين السابقين. يرى هؤلاء أن علينا أن نشتري حاجيات مادية بدلاً من إعطاء النقود للمتسولين، هكذا نضمن أننا لا نشجع الشبكات. عملياً، بعض الأصدقاء تأكدوا من هذا، وذهبوا إلى بيوت المتسولين محملين بحوائج مختلفة: النتائج كانت ممتازة. ولكن، أليس في هذا نقض لقصة الشبكات؟

على أية حال، لا نعلم ما هو رأي المتسولين، أو فقراء السوريين، في هذا الموضوع.

أتبادل حديثاً سريعاً مع خطيبتي حول شحاطة فاطمة. نجد أنفسنا في موقف غريب. لا نعرف إن كان هناك مكان قريب لشراء شحاطة، من جهة. من جهة أخرى، فاطمة لم تبدِ أي استعداد لمغادرة المكان معنا. ربما لا يجوز أن تغادر.

اقترحت خطيبتي أن نذهب إلى المول. فكرت سريعاً أنهم سيطردوننا. في كل المولات التركية تفتيش أمني: لن يسمحوا لنا بالدخول مع فاطمة. لم أخبر خطيبتي بأفكاري، خشيت أن تصرّ على الذهاب إلى المول مع فاطمة. هؤلاء الأجانب لا يقدّرون حجم الذل الواقع علينا، ربما ستخبرني أن من حق كل فرد دخول المول، سواء كانت فاطمة أم سلمى الحايك.

ترّهات المساواة لا تنطبق علينا يا صديقتي.

تقاطعنا فاطمة: «عمو، عشرين ليرة بيكفّوا. عطيني ياها وأنا بخلي ماما بكرا تشتريلي شحاطة جديدة».

ترتبك فاطمة بورقة العشرين ليرة، لا تعلم أين تخفي مثل هذا المبلغ الضخم.

أترك فاطمة ورائي وأمشي سريعاً إلى مكان لا تطولني فيه نظراتها.

جدران المجمع التجاري تتمدد لتسيّج كل مكان أصل إليه في عنتاب.

خارجها، فاطمة تلهو وحدها حافية القدمين.

عنتاب، خيمتنا الأخيرة

تقول مضيفتنا: «والله لو بإيدي لروح أجيبو وأحطو جنبي. إيش هاد يا الله؟ ابني عميحارب مع الجيش الحر صرلو تلات سنين. أنا يا أخي بحب إبني أكتر من الثورة وأكتر من سورية وأكتر من الحرية. بس والله مو طالع بإيدي شي. بدو يحارب...».

تسكت منتظرةً تعقيباً. نصمت جميعاً.

للجيش الحر والكتائب الإسلامية وجود غير معلن هنا. بعض المقاتلين يأتون إلى عنتاب والمناطق الحدودية للاستراحة، أو لزيارة الأهل والأقارب، أو لعقد اجتماعات. عنتاب بشكل خاص، والجنوب التركي بشكل عام، هي حديقة الثورة السورية الخلفية. هنا تتنفس الثورة.

عنتاب خيمتنا الأخيرة. لا بيروت ولا عمان ولا طرابلس ولا غيرها. من هنا يتدفق المال والسلاح والمساعدات إلى الداخل السوري. ولكن عنتاب ليست بيروت الفلسطينية؛ لا قيادات كاريزمية في الثورة، لا قيادة تجمع أبو عمار وأبو جهاد وأبو إياد؛ لا يسار قوياً تمثله الجبهات الشعبية

والديمقراطية؛ لا مثقفين يتماهون مع الحرب والقيادة والضحايا؛ خيامنا لا تجهّز مقاتلين ولا شعراء؛ أعدادنا الصغيرة نسبياً وضعفنا لا يسمح لنا بأن نكون قوة في السياسة الداخلية، على العكس، نحن ألعوبة في يد الساسة الأتراك.

لأسباب تتعلق بالوقت، وبعدم الرغبة، لم ألتق بأي ممثل عن الحكومة المؤقتة. رواتب الحكومة توقفت منذ أربعة أشهر، مما يعني أن مئات العوائل التي كانت تعيش على هذا الدخل المتواضع أحياناً، والكبير أحياناً أخرى، إضافة إلى من يعتمدون عليهم في معيشتهم، تعيش اليوم دون مصدر رزق. يضاف إلى ذلك توقف جزء من المساعدات التي تؤمّنها الحكومة على الصعيدين التعليمي والإغاثي في عنتاب وفي الداخل. المطلوب توسيع هذا العمل وليس تضييقه.

في عنتاب، كما في كل مكان، ينقسم السوريون إلى ميسورين ومعدمين. في حفلة كنان العظمة وديمة أورشو غاب المعدمون وحضر النشطاء والميسورون. كذا الأمر في اسطنبول وبيروت أيضاً. لا جسور تصل بين الشعبين. كانت الثورة احتمالاً مفتوحاً، وانكسر.

قصص اللجوء وطلباته والتفكير به وباحتمالاته تطالعك في معظم الأحاديث. بالمجمل، يبدو أن الفقراء لا يفكرون حقاً بالهجرة الثانية، أما الطبقة الوسطى فتسعى جاهدة لذلك. إلى أين؟ البحر أم القنصليات؟ يميل الناس إلى الثانية، دون أن يلغوا الاحتمال الأول.

«يعني أول ما إيجينا لهون كنا مفكرين نقعد. بس وبعدين؟ الولاد عميكبروا، ونحنا عمنكبر. بدنا نأسس شي. ما فينا نضل هيك معلّقين».

كل ما في الأمر أن العمر يمضي، ولا أفق يفتح لنا.

بكر صدقي، الصحفي والمترجم عن التركية إلى العربية، لا يفكر في السفر.

«لنشوف بعدين شو بيصير، هلق بكّير».

في مقهى «جنجق» يشرح لي أن القاف لا تُلفظ في اسطنبول، ولكنها تُلفظ في الشرق والجنوب. ينصحني بألا أحكم على عزيز نيسين ككاتب ساخر، هذا التعبير ملتبس. أعد قراءة ناظم حكمت، بالرغم من أن أشعاره السياسية فقدت بريقها. اقرأ «اسمي أحمر». لا، ليست كل أعمال باموك عالية الجودة. لا تعمل في الترجمة، «شي بيعلّ القلب واللّه» اكتب أكثر، واعمل في التدريس إن وجدت فرصة. يقول بكر إنه لا يطيق التدريس، صبره قليل.

الرجل شبه معتزل في المدينة، لا يريد الانخراط مع الناشطين والناشطات والأجانب والسياسيين.

انتقل إلى بيت جديد الشهر الماضي، أرخص وأكبر.

سرق منه حافظ الأسد ما يقارب الخمس عشرة سنة من عمره قضاها في سجونه؛ اليوم يبدأ حياةً جديدةً في عنتاب وقد تجاوز الخمسين، مع زوجته وولديه.

«إيه البيت الجديد معقول، فيه حديقة صغيرة، رح أزرعها فليفلة وشغلات تانية، لنشوف...».

من يوميات المنفى

(نشرت في «القدس العربي» في 14 كانون الثاني 2014)

سنتان ونصف، في ما يشبه المنفى. لم تكن دمشق يوماً أبعد. لا أهل فيها لأزورهم، والأصحاب في المنافي أكثر من الأصحاب في المدينة. لم تكن دمشق يوماً أكثر فراغاً. سنتان ونصف، أعيش حياتي اليومية، محاولاً أن أشارك في الثورة على قدر استطاعتي، إلى أن يأتي يومٌ يكسرني. أتسمّرُ أمام الشاشة متابعاً اعترافات روان قدّاح.

تقفز في ذهني صورة الفتاة الأخرى. احتجت إلى عدة أسابيع كي أُخرجَ آلاء مورللي من حياتي اليومية. في مقطع قصير، تُدلي آلاء باعترافاتها على شاشة النظام السوري. بعد خطاب متقطّع حول التضليل الإعلامي، يتضمّن الكثير من الأسماء الشهيرة والمغمورة، تأتي لحظة فاصلة. كأن الملاك جبريل يتكلّم من خلال عينيها. أنظر إلى الملاك وجهاً لوجه. حجابٌ أبيض كهالة قديس. «ما بعرف شو بدي قول لأهلي». أسى شفيف يختصر الألم السوري. لم تحارب الملائكة معنا، لكنها تتلبّس أطهرنا في لحظات الشدة. تحدّثنا بصوت دافئ يكاد يعتذر.

نرى في آلاء ما تبقّى من سورية. ملاك يعتذر عن كونه خيّراً. أتابع

روان. للمرة المئة، أُعيد المقطع المسجّل وهي تروي فيه اعترافاتها على شاشة التلفزيون السوري. روان ميلاد قداح من نوى، ستة عشر عاماً. تميل شفة روان السفلى إلى اليسار قليلاً عندما تتكلم. تصف روان كيف اغتُصبت للمرة الأولى. تميل شفتها السفلى قليلاً، ثم تتابع بعيون فارغة. «أنا بتوقع أنو أبي نايم معي». تستعجل روان هذه الجمل، تنطقها كأنها تُخرج مارداً أسود. تحاول أن تجعل الجمل مفهومة. في نوى المحررة، إذاً، ينام مسلحو المعارضة مع روان، ويدفعون لأبيها. عين روان ليست ميتة، بل فارغة. لا دمع ولا زفرات. فقط شفتها السفلى تميل قليلاً. تروي لنا روان أن أمها أيضاً كانت تمارس «يلي هنن بيسموا جهاد النكاح». لا يرتجف صوت روان. كل ما في الأمر أن شفتها السفلى تميل قليلاً. تختم روان بأنها استنجدت بالجيش، الذي أخذها إلى مركز عناية «ووصلوني للمرحلة يلّي أنا فيها هلق». تميل شفتها كأنها تكاد تبكي. لا صمت يتيح لنا أن ننظر لروان بهدوء في نهاية التصوير. تختفي روان بسرعة. تبقى في الذاكرة شفتها السفلى التي تميل قليلاً إلى اليسار. يبقى هذا الميلان المسحة الإنسانية الوحيدة من روان. أهجس بروان على مدى عدة أيام. ما هي المنظومة الفكرية للإعلام السوري التي تسمح بتعذيب طفلة بهذه الطريقة؟ أين روان؟ أين أهلها؟ كيف عشنا مع القتلة كل هذه السنين؟ كيف تحوّل أصدقاء وأهل إلى مجرمين ومبررين للجريمة؟ كيف سنعيش مع هؤلاء لاحقاً؟ كيف ستعيش روان معهم؟!

سنتان ونصف، لم أزر دمشق. هل هو المنفى ما يجعلني أفكر بالضحايا باستمرار؟ بآلاف الشباب الشيعة وآلاف المهاجرين، تبكيهم أمهاتهم كما نبكي أبناءنا في داعل وفي منبج؟ ينطقون بالشهادتين، ويسلّمون الروح على مهل. يُدفنون بدمائهم كالشهداء، كآلاف العلويين في قرىً تتشح بسواد وبأصوات نساء تبكي إخوتنا في الوطن. في كل شارع

وفي كل بيت، مجرم قتيل. «براميل» النظام لا تحرّك ساكناً لدى أصدقاء وأهل ما زالوا يتشبّثون بالسيد الرئيس. أرقٌ مستديم. دوما تدفن أبناءها وتمضي في درب لا نهاية له. مخطوفون عند مجاهدين يبذلون النفيس في الدفاع عن مدينتهم في وجه الغزو الشيعي. لا أخبار عن المخطوفين. براميل الموت تلهو في السماء، لا أهداف تضربها. حقدٌ أعمى يصبّه إخوتنا في الوطن على رؤوسنا. يدفن السوريون أبناءهم لاعنين من هو آمن على بعد كيلومترات قليلة. ينطقون بالشهادتين، ويسلّمون الروح على مهل. أرقٌ مستديم. أسرى ومخطوفون على كل الجبهات. لم تكن دمشق يوماً أبعد.

سنتان ونصف، في ما يشبه المنفى. أي منفى؟ لو أردت، لزرت دمشق. كل ما عليّ فعله هو أن أجيب بتهذيب عن بعض الأسئلة في أحد الفروع الأمنية، وأن أطلب المساعدة ممن لا أستطيع طلب مساعدة شخصية منهم. في هذا ذلٌّ لا أحتمله. أهو دلال إذاً؟ ليس هذا بمنفى.

سنتان ونصف، أعيش حياتي اليومية، محاولاً أن أشارك في الثورة على قدر استطاعتي. وكمعظم السوريين، أذكّر نفسي بأن الأسى والحنين يقيّدان المريض بهما. وكمعظم السوريين، أعرف أنني لم أفعل ما يجب فعله، ولا أعرف بالضبط ما الذي يجب فعله. وككل السوريين، يجتاحني الحنين أحياناً، حتى أكاد أبكي كل ذكرى. أمي تطبخ رز «ببازيلا»، أبي يسمع صباح فخري، «أبو حمود» في قهوة الكمال، أكلة «أبوات» بالميدان، ضجر الظهيرة في مقهى الروضة، «برتيّة» شدة في مقاهي الربوة، أو شاي قذر، في الربوة أيضاً، بعد منتصف الليل، وتأمّل ما بقي من بردى الفقير. أجلس تحت جسر الرئيس متأملاً آلاف السوريين يتسابقون على «مَكاري» يتكدّسون فيها، وينظرون إلينا بعيون ميتة عندما يتحركون. شرطي المرور يرتشي على مدار الساعة. سيجارة حمراء، عرق البطة،

مازة وأم كلثوم. شباب «عميلطشوا» يدفعون الفتيات للابتسام، وغيرهم يتحرشون بقلة أدب لا حدود لها، مثليو الجنس في «الشعلان»، سيارات «المرسيدس» و«البيجو» تقطع الإشارة الحمراء، جدتي تُطعم الحمام على شرفتها، وتتذمر من قلة الحياء عند بنات هذا الجيل، روتانا موسيقا في كل مقهى ومطعم، اللهجة الديرية في مقهى الحجاز، صور الديكتاتور في كل شارع، الزحمة في محطة وقود شارع بغداد، النابلسي على الراديو، الروسيات في 29 أيار، «مدلوقة» من نبيل نفيسة، امرأةٌ ينهرها زوجها في الشارع، وترتبك من نظرات المارة، أبٌ يعنّف ابنه بحدّة سيتذكرها الطفل طويلاً، وصوت عجوز يهمس: «الحمد لله ع الصحة».

وككل السوريين، يجتاحني الحنين، حتى أكاد أبكي كل ذكرى.

يقيّدني الحنين. لا شفاء ولا حلول ولا وصفات ناجعة.

كان علينا أن نزيل صور الطاغية من شوارعنا.

هكذا أطوِّع الحنين.

أما الأرق والمنفى، والخسارات الشخصية، فلا عزاء لنا فيها.

القسم الثاني:

الثورة

عصافير الدوري: سنتان في المعتقلات

(نشرت في «الجمهورية» في 11 تشرين الثاني 2015)

حوار مع: محمد منير الفقير

حاوره: عدي الزعبي

خلال السنوات المرعبة لحكم الإرهاب الستاليني، كنت سجينة لمدة سبعة عشر شهراً في سجن للنساء في لينينغراد... وذات مرة كانت تقف خلفي امرأة مزرقّة الشفاه... همست في أذني من شدة الرعب والبرد سائلةً: «هل تستطيعين وصف كل هذا الذي يجري هنا؟». أجبت: «نعم». وهنا ارتسم ما يشبه الابتسامة على هذا الذي كان وجهاً ذات يوم.

آنا أخماتوفا، شاعرة روسية

اعتقالان وحرية مؤقتة

اسمي محمد منير الفقير، ولدت لعائلة دمشقية في دمشق عام 1979، وحصلت على شهادة هندسة معلوماتية من جامعة دمشق. ابتدأت علاقتي مع الجمعية السورية لحقوق الإنسان في 2004، عن طريق الأستاذ هيثم

المالح، وقد كنت أساعد في الدعم التقني وفي رصد الأخبار. لاحقاً، تعرّفت على بعض الشخصيات في إعلان دمشق، وكنت ثاني أصغر عضو في الإعلان. تعاونت وتعلّمت الكثير من المعارضين في تلك الفترة، وأذكر منهم رياض سيف وفواز تللو وياسر العيتي ومعاذ الخطيب وسهير الأتاسي ورياض الترك وياسين النجار وأنس العبدة وعماد الدين رشيد والعديد من المعارضين الآخرين. تواريت عن الأنظار بعد حملة الاعتقال التي شملت بعض أقطاب الإعلان لفترة قصيرة. حافظت على عملي في شركة اتصالات خاصة، وعلى عملي مع إعلان دمشق في الداخل والخارج، خصوصاً الدعم التقني اللوجستي، إضافة إلى أنشطة أخرى متعددة معارضة.

اعتُقلت للمرة الأولى في 16 آذار 2011، من أمام القصر العدلي. كنا قد اتفقنا مع مجموعة من الأصدقاء من الإسلاميين والمحافظين، بالتعاون مع مجموعة أخرى علمانية، على محاولة تحريك الوضع في دمشق: من تحركات أمام السفارة الليبية إلى مظاهرة 15 آذار وصولاً إلى الاعتصام أمام وزارة الداخلية في 16 آذار، وغيرها من محاولات تحرك فاشلة أخرى. كنا قد اتفقنا على التوجه من أمام وزارة الداخلية إلى ساحة المرجة القريبة، ومنها إلى القصر العدلي، في حال لم نستطع أن نعتصم أمام الوزارة. وصلت إلى الوزارة حيث اعتُقل معظم الموجودين، وتوجهت إلى ساحة المرجة التي امتلأت برجال الامن، وفي النهاية توجّهت إلى القصر العدلي. هناك ساعدت فتاتين على التخلص من رجال الشرطة الذين كانوا يحاولون اعتقالهن. ارتبكت الشرطة من صوتي الآمر وتدخلي العنيف. بعد أن غادرت الفتاتان، وصل الضابط المسؤول الذي كشفني فوراً. أخذني إلى محل تجاري مجاور، حيث كانوا يودعون كل المعتقلين في المحلات المجاورة، ومن هناك اقتادني إلى الفرع.

خرجتُ بعد شهر تماماً، لأتابع نشاطاتي بهمّة أعلى. الاعتقال الثاني

كان على الحدود السورية اللبنانية، في 2012/3/2، كنت متوجهاً إلى بيروت في زيارة عادية. كان سبب الاعتقال هو أن أحد المعتقلين قد ذكر اسمي تحت التعذيب. لم يكونوا على علم بكل نشاطاتي حقيقةً. أمضيت هذه المرة سنةً وأحد عشر شهراً في سجون النظام. خرجت في 2014/1/22.

مجموع ما قضيته في المعتقلات يعادل السنتين إذاً.

في الاعتقال الأول، سُجنت في «الأمن السياسي» ثم حُوّلت إلى «أمن الدولة». في الاعتقال الثاني، سُجنت في المخابرات العسكرية (فرع 215)، ثم نُقلت إلى فرع الإدارة (فرع 291)، ثم إلى فرع الإيداع (فرع 216)، بعد ذلك إلى المحكمة الميدانية في القابون، ومنها إلى سجن صيدنايا، ثم إلى فرع المخابرات الجوية؛ بعد ذلك ساءت حالتي الصحية ونُقلت إلى مشفى المزة العسكري، ولكنهم أعادوني إلى المخابرات الجوية، ثم إلى المشفى العسكري ثانيةً لأسباب صحية، ثم إلى المخابرات الجوية مرةً ثالثة، ومنه إلى سجن صيدنايا.

أُطلق سراحي من صيدنايا في نهاية الأمر.

غادرت دمشق بعد أيام إلى الأردن، ومنها إلى تركيا.

لن أرحل أبعد؛ وآمل أن أعود إلى دمشق قريباً، بإذن الله!

قبل المعتقل: الرعب والأمل

كان الخوف وحده كفيلاً بفرض الطاعة الكاملة على السوريين. قصص الثمانينيات والاعتقال المديد والتعذيب المستمر شلّت كل إمكانية للحراك. كنت أخاف الاعتقال والتعذيب خوفاً كبيراً، بالطبع. جزء كبير من هذا الخوف اختفى ما إن دخلت المعتقل. عندما تكون معتقلاً، وتتعرض للتعذيب، ينكسر حاجز الخوف وتختفي الهالة التي تحيط بالألم

تلقائياً. أقصد أن هناك أشكالاً مختلفة من الخوف والرعب، ولكن حاجز الخوف ينكسر؛ بعد خروجي لم أشعر بوجوده بالطريقة نفسها وبالدرجة ذاتها التي تحكم مَن لم يتعرضوا للتعذيب والاعتقال.

الفارق الرئيس بين الحياة قبل المعتقل وبعده هو أننا رأينا بأمّ العين حقيقة النظام العارية والكاملة، هناك داخل المعتقل. خارج المعتقل، تصرّ الأنظمة الاستبدادية على وجود قوانين تحكم طبيعة علاقتها بمواطنيها، وأن للاعتقالات أسباباً وجيهة، كالإخلال بالأمن وتعريض الوطن للخطر؛ ومهما اعتقدنا أننا نعرف كذب النظام وتأسيسه الحياة على الخوف، يبقى لكذبة القانون إغراء لا يقاوم خارج المعتقل: هنا تجري الحياة بشكل طبيعي، وما دمت تتحاشى الخوض في السياسة، فلن ينالوا منك. داخل المعتقل، أيّ داخل المنظومة الأمنية الحاكمة، هناك تجد حقيقة النظام: الوجه غير الطائفي المقنّع في الخارج يسقط في الداخل ليظهر الوجه الطائفي الوقح؛ التعذيب بقصد التعذيب، وأشكال الحقد الكثيرة على المواطن، أي الحقد الطبقي والطائفي والمناطقي، الذي لا يظهر في الخارج صراحة، يتجلّى بأبشع أشكاله في الداخل. في الداخل، تتبخّر أوهامك حول القانون ومعناه: لا قانون إلا التعذيب هنا.

أنا شخصياً، وأعتقد أن معظم أصدقائي ومعارفي، تحديداً من جيلي والجيل الأصغر، لم نصدّق أن النظام اليوم قادر على تكرار سيناريو الثمانينيات. كنا نرى في انطلاقة الربيع العربي، وفي تطور وسائل الاتصال، وفي تحوّل العالم إلى قرية صغيرة، مؤشرات على انهيار ذلك السيناريو. اختلف العالم عمّا كان عليه يوم تدمير حماة: لدينا إنترنت وأقمار صناعية؛ منظمات دولية حقوقية فاعلة؛ سلوفودان ميلوسوفيتش حوكم؛ أنظمة استبدادية متعددة سقطت في العالم العربي وفي أوروبا الشرقية وغيرها.

في المعتقل، لمست شخصياً التغيير في درجات التعذيب وأساليبه. في الأيام الأولى، لم يكن التعذيب كبيراً، ولم يكن عدد من ماتوا تحت التعذيب كبيراً. هذا الأمر عزّز إيماننا بان النظام لن يكرر سيناريو الثمانينيات. مع منتصف 2012 شهدت التغيير: توسّع عمل المحاكم الميدانية وأُنشئت محاكم الإرهاب؛ لم يعد النظام يطلق سراح المعتقلين بعد أسبوعين أو شهرين، كما كان سائداً في 2011، وطالت فترات الاعتقال وزاد عدد من يموتون تحت التعذيب أسبوعياً. تحوّل سجن صيدنايا العسكري إلى السجن الأساسي لمعتقلي الثورة، أو ما يمكن أن نطلق عليه «سجن تدمر الجديد». لاحقاً، تجاوز عنف النظام ما ارتُكب في الثمانينيات بمراحل: بدءاً من المجازر المتنقلة، واستخدام الكيماوي، وتعميم التعذيب في كل المعتقلات. جرى كل ذلك تحت أعين العالم أجمع، وأقماره الصناعية ووسائل اتصاله الحديثة ومنظماته الدولية الفاعلة!

أدرك شباب جيل الثورة متأخرين أن ما يحصل اليوم يفوق ما حصل لجيل آبائهم، بعد أن تورّطوا في الثورة وغرقوا في وحولها إلى آذانهم. لم يكن هناك إمكانية للتراجع. أفكّر أحياناً أن هذا كان لخير الثورة. لو عرف الكثير من شباب الثورة أن النظام سيتفوق على نفسه في العنف، وأن العالم سيتركنا، مرةً أخرى، لمصيرنا المحزن، ربما لم يخرجوا إلى الشوراع هاتفين للحرية.

بعد المعتقل: «لازم نفضح الدنيا!»

داخل المعتقل، كان أحد الأسئلة التي تؤرقنا هي ما الذي ستفعله إن خرجت حيّاً؟ بعضهم كان يريد الهجرة إلى أوروبا، ولم نكن نعرف بموجات اللجوء السورية بعد. أغلبنا رأى أن ما علينا فعله حين نخرج هو أن «نفضح الدنيا» بممارسات النظام، كان هذا هو التعبير الأقرب

إلى قلوبنا. هذه أمانة وواجب تجاه الله والمعتقلين والشهداء الذين قُتلوا أمام أعيننا تحت التعذيب؛ الخيانة هي أن نصمت بعد الخروج. ثلاثة ممن تعاهدوا معنا على «فضح النظام» استشهدوا لاحقاً، وخرج ستةٌ، أنا أحدهم. لم يتردد ولم يقصّر أي منا، ضمن إمكاناته وعلاقاته. أنا شخصياً، لم أترك فرصة إلا واستفدت منها، في وسائل الإعلام ومع المنظمات الحقوقية المحلية والدولية. أفكر أحياناً أن تجوالي بين معظم فروع الخابرات نعمة من رب العالمين سمحت لي بأن أشهد الفوارق بينهم، وأن أدلي بشهادتي وأوثّقها عن كل فرع؛ عسى أن يعرف العالم بما يدور فيها.

لا أعتقد أننا قصّرنا، صراحةً. معظم المعتقلين الذين أعرفهم أدلوا بشهاداتهم وحاولوا شرح قضايا المعتقلين في سجون النظام. ولكنّي أعتقد أن هناك تقصيراً لا يقع على عاتق المعتقلين المحررين. لا توجد منظمات وطنية فاعلة وحقيقية وناشطة تُعنى بقضايا المعتقلين، سواء الذين ما زالوا يقبعون في سجون الأسد أو الذين خرجوا ولم يجدوا أي دعم مادي أو نفسي. معظم المنظمات العاملة تتنافس في ما بينها ويحكمها الدعم الخارجي، على ما أرى، ولا تملك أي خطة استراتيجية حول رفع دعاوي والتواصل مع أهالي المعتقلين؛ وهذه أمور تحتاج إلى تخطيط وتستغرق زمناً مديداً.

من أكثر الأمور التي تثير الحزن، هو اعتقاد المعتقلين بأن قضيتهم هي رقم واحد على سلّم أولويات المعارضة الوطنية الثورية. كنا نتفاءل دوماً بمفاوضات جنيف، قبل أشهر حتى من انعقادها. كل أسبوعين تنتشر شائعة أننا قضية جنيف الرئيسة، وأن الثورة والمعارضة والعالم أجمع، لا همّ لهم إلا إطلاق سراحنا. كذا الأمر في الأعياد والمناسبات: رأس السنة، بداية رمضان، عيد الفطر ثم الأضحى. تزامن خروجي

مع بدء مفاوضات جنيف، بالمصادفة. يوم خروجي، طلب مني صديق أسماء المعتقلين لرفعها للمفاوضين في جنيف. لم أصدّق أن «الشباب الطيبة» لا يملكون قوائم بعد، وأن قضيتنا كانت هامشية تماماً، بل وتكاد تكون غير موجودة، للمعارضة التي ذهبت إلى جنيف.

بعد حديثي القصير مع هذا الصديق دخلت إلى الحمّام. لم أرَ نفسي في المرآة منذ دخولي السجن. كنت أعرف أنني قد فقدت معظم وزني. أحياناً كنت أرى انعكاس صورتي على أرض المهجع حين نقوم بتنظيفه بالماء. لم أجد الشجاعة لإخبار العائلة أنني «جربان»، فتركتهم يقبلونني ويعانقونني. بعد ذلك أخبرتهم ضاحكاً، ودخلت الحمّام بمساعدة أحد أقربائي. لم أكن قادراً على تنظيف نفسي، أو حتى على خلع ملابسي بمفردي. كانت صدمة رهيبة أن أرى نفسي في المرآة، ثم أن أزن نفسي لأرى أنني فقدت 100 كيلو.

دخلت السجن وأنا أزن حوالي 150 كيلو، وخرجت و أنا أزن 50 كيلو فقط!

داخل المعتقل، لا تستطيع ألا تشعر ببعض الحسد عندما يخرج أحدهم. أقصد أنك تفرح للخارجين، ولكنك تأسى على نفسك. أحياناً أخرى، تتمنى أن يخرج معتقل محدد بدلاً منك. أذكر أحد المعتقلين المصابين، كانت رجله تتقيّح، ويأتي السجّانون ليضربوه على تلك الرجل. كنت أتمنى له أن يخرج أكثر مما أتمنى لنفسي الخروج، أو أن يموت. في بعض الأحيان، تتمنى لعملاء النظام الخروج. هؤلاء يسمّمون حياة المعتقلين أكثر من السجّانين أنفسهم. السجّان يأتي لمدة محدودة ثم يختفي، أما العملاء من المعتقلين فيلازمونك دوماً. كنا نتمنى لهؤلاء الخروج أكثر من اي شيء آخر.

الأكثر إيلاماً بعد الخروج هو لقاء أهالي المعتقلين. لا تستطيع ألا

تشعر بأن وجودك خارج المعتقل أمر خاطئ، ما دام أبناؤهم معتقلين. على الرغم من أنهم يبادلونك كل الود والمحبة والتعاطف، إلا أن فكرة أنك حر وأبناءهم معتقلون تجعلك تشعر بمرارة لا حدود لها. لم يقل يوماً أيٌّ من الأهالي شيئاً عن هذا، ولكنني دائماً أرى ذلك في عيونهم.

دائماً تسمع بعض التلميحات عن خروجك: لماذا أخرجك النظام أنت بالذات؟ هكذا يصبح خروجك، وبقاء معتقلين آخرين في السجن، تهمة جديدة تتبعك أنّى توجهت. أحياناً تسأل نفسك هذا السؤال، بل وتتهمها، كأنني أنا مسؤول عن سجنهم. تلاحقني هذه الفكرة باستمرار. يعيش المعتقل المحرر حياة مليئة بتأنيب الضمير ليل نهار. كل ضحكة، وكل وجبة طعام حقيقية، وكل مشوار جميل، وكل جلسة مع الأصدقاء أو العائلة، تسمّمها معرفتك بأن الآخرين ما زالوا يقبعون في السجون محرومين من كل شيء. يحاصرنا تأنيب الضمير ويطلّ من كل زاوية. أحياناً يبدو أن المخرج الوحيد من تأنيب الضمير ومن اتهامات الناس لك بالسعادة هو أن تسلّم نفسك مرة أخرى. على الأقل، سينتهي كل هذا الجنون.

أعتقد أن المتابعين لأخبار صيدنايا، وحتى أهل المعتقل نفسه، لا يعرفون معنى أن يأتي خبر استشهاد أحدهم كما يعرفه معتقل سابق. «فلان مات» تعني للبعض مات تحت التعذيب، أو قُتل، أو مرض. أما للمعتقل السابق فتعني شيئاً آخر: تعني ما قد رآه بأم العين عند استشهاد الأصدقاء والزملاء هناك. على سبيل المثال كيف سُحب أحدهم من بين السجناء وضُرب من قبل أربعة أو خمسة سجّانين حتى فارق الحياة؛ وكيف «انلحشت» الجثة لساعات في المهجع قبل إخراجها؛ وكيف تسابق المعتقلون لتقاسم ثيابه، إن كان يملك شيئاً منها؛ ثم كيف سحب السجّانون الجثة على الأرض وبصقوا وداسوا عليها عند إخراجها. لا أحد يشعر بمعنى الموت في المعتقل أكثر من معتقل سابق.

بعد الخروج، لم ألحظ أنني قد تغيّرت، على الرغم من أننا داخل السجن كنا نقول أحياناً إن كل هذه القسوة ستؤثر فينا بشكل ما. علاقتي مع الأهل كانت سيئة جداً. كنت أكلّم الجميع بلهجة آمرة وعدائية، وأتذمر باستمرار. بعد حوالي الشهر، معتقل سابق أخبرني بأنني أعامل الأهل بطريقة سيئة. لم يُرد الأهل أن يتكلموا في الموضوع خشية أن يجرحوني. لم أصدّق، أخبرته أنني ما زلت كما كنت قبل دخولي السجن، أستمع وأتفهّم وأناقش. ولكنه طلب مني أن أراقب نفسي أكثر. بعد أشهر، كلما تذكّرت ما الذي فعلته وقلته في الشهر الأول بعد خروجي، شعرت بالحرج الشديد. كيف احتملني الناس مع كل وقاحتي تلك؟!

أعتقد أن البلاد تغيّرت كثيراً في السنتين اللتين قضيتهما في السجون. على سبيل المثال، عند خروجي الأول، احتفل الناس بي، وأتى المرحّبون من كل مكان. عند خروجي الثاني، لم أجد أحداً تقريباً. اعتاد الناس الموت والاعتقال والتعذيب.

مشكلة كل معتقل محرر هي أن من يدعمك بعد خروجك قلة قليلة من الناس، سواء مادياً أم نفسياً. أفكر أحياناً أن من كان باستطاعته مساندتي، كما حدث عند خروجي الأول، هم أولئك الذين ما زالوا معتقلين! أحياناً أتمنى أن أعود إلى السجن لساعات معدودة، لأكون معهم؛ هؤلاء هم الأصدق. هناك حالات أصعب بكثير من حالتي. معظم المعتقلين المحرّرين يتعرضون لخطر الاعتقال ثانيةً. بعضهم، صدّق أو لا تصدّق، مطلوب للخدمة العسكرية! كل مؤسسات الثورة والمعارضة تتركنا معلّقين دون أي مساعدة على الإطلاق. بعض المحررين هرب من سورية، ثم عاد إليها مضطراً تحت ضغط الفاقة والفشل.

أفكر أحياناً أن وضع المعتقلين أسوأ من وضع المحاصرين. عندما يموت الناس تحت البراميل، يجدون من يعزّي فيهم من الأقارب

والأصدقاء. يبكون علناً ويشكون محنتهم إلى الله عزّ وجلّ بصوت مسموع، وللناس من حولهم؛ يصلّون على القتلى ويدفنونهم؛ يشتمون النظام ويحاربونه إن أرادوا. في السجن، عندما يموت أحدهم، لا تستطيع مساعدته وأنت تراه يموت أمام ناظريك؛ أحدهم كان يبكي وهو يطلب منا فقط أن ندفئه، ونحن شبه عراة نراقبه يرتجف في برد الشتاء، حتى مات متجمّداً؛ لا يُسمح لك أن تبكي؛ التعليمات تقتضي أن تخبر السجّان عن موت أحدهم مستخدماً عبارة «فلان فطس»؛ لا يُسمح لنا أن نصلّي عليهم أو أن ندعو لهم.

مات في المعتقل، تحت التعذيب، صديقي وزوج ابنة عمي، الدكتور أنس قطيفاني. كما مات تحت التعذيب ابن حماي معاذ الخيمي. ومات أيضاً ابن خالتي هشام تقي الدين تحت التعذيب.

أصبحت أكنّى «أبو معاذ»، تيمّناً بالشهيد معاذ.

داخل المعتقل: «تجرّعنا كأساً من الذل»

عندما تواريت عن الأنظار بعد الاعتقالات التي طالت أقطاب إعلان دمشق، ذهبت إلى أحد الأصدقاء، الأكبر سناً وخبرةً، طالباً النصيحة. أخبرني بأن الأمر الأهم هو ألا يكسروا إيمانك. سيحاولون بكل الطرق أن يقنعوك بأنك هنا بسبب خطأ ارتكبته أنت. كل التعذيب، النفسي والجسدي، يهدف في النهاية إلى أن يؤمن المعتقل نفسه، حتى لو بشكل لا واعٍ، بأن الأسلم، والأفضل له ولعائلته ولمستقبله، أن يعتزل السياسة لمن يفهم فيها، أي للنظام وحده. تذكّر دوماً: أنت لست بمجرم، أنت صاحب قضية. لا تدع السجن يحبس روحك، وإن حبس جسدك. في الاعتقالين، كنت أكرر لنفسي يومياً مقولته. الكثير من الأصحاب ومن معتقلي الثورة، يضعفون، بسبب سطوة السجن والسجّانين، ويخسرون إيمانهم. ربما

أخطأنا، وربما كان علينا أن نلتزم بيوتنا ونترك الأمر لأصحاب الأمر. بعض المعتقلين يشتمون الثورة وسورية وشعبها؛ هذا ما يريده السجّانون. يتشاجر المعتقلون على كل شيء: على الطعام، على فسحة للجلوس، على أماكن النوم؛ كل أسباب الحياة تنقصنا هنا. احتجت إلى الكثير من الإيمان بهدف الثورة كي أتخطى هذا كله دون أن أكفر بالشعب.

في بدايات اعتقالي، لم يكن السجّانون يدققون عندما نصلي. لاحقاً، أصبح الأمر يعتمد على العنصر المسؤول. في صيدنايا، الصلاة جريمة قد تؤدي إلى الموت. كنا نصلي أحياناً بالهمس، جالسين كالعجائز، دون أي حركات أو إشارات. الصيام كان مسموحاً في الفروع، بشكل عام، وممنوع في صيدنايا بالطبع. ولكننا كنا نصوم، أي أننا نصوم دون أن نخبر أحداً أو دون أن نظهر صيامنا. كان السجّانون يشتمون الله عزّ وجلّ باستمرار، والرسول محمد (صلعم). أيضاً، كانت أصوات لطميّات شيعية تصلنا في كثير من الأحيان في زنزانتنا في صيدنايا.

لم يكن هناك طائفية بين المعتقلين، معظمنا سنّة؛ في صيدنايا، كلنا سنّة. معظم السجّانين يتكلمون اللهجة العلوية، ولكنك تستطيع أن تميّز من يقلّد اللهجة ممن يتكلمها بشكل أصيل. لاحظت أحياناً أن بعضهم يتكلم اللهجة الشاوية عندما نكون وحدنا، على الرغم من أنه يتكلم اللهجة العلوية عادةً.

كان السجّانون جميعاً يسألونني: «قديش حق بيتك ولا؟». تكرر الأمر مع بقية الدمشقيين المعتقلين. غالباً ما كان يتبع هذا السؤال صفعات متنوعة تصحبها شتائم كبيرة.

معظم الضباط العلويين كانوا يطلبون من السجناء الشوام أن يقولوا «برتقالة». حين نرد «بردئانة»، كانوا يضربوننا. يستمر الضرب إلى أن نقول «بردقاني»، بلهجة أهل الساحل. يفرح السجّان بانتصاره، «برافو

عنك. من أول كان لازم تقول بردقاني»، بالقاف الفاقعة. أيضاً أثناء التحقيق، حين يسألوننا عن قراءاتنا، كان علينا أن نجيب بالقاف: «بقرا سيدي»، وليس بالهمزة كما نلفظها في دمشق.

في المعتقل، تذكّرت العبارة المتداولة: «تجرّع كأساً من الذل». هناك تشعر كأنك تمسك كأس الذل وتتجرعها حقيقةً لا مجازاً. هناك بعض القصص عن الحياة اليومية للمعتقلين، أرى أنها تجسّد هذا الذل، أودّ أن أتكلم عنها وأن يسمعها الناس. هذه القصص ليست عن التعذيب الجسدي، وهو أمرٌ لن أخوض فيه هنا، كما اتفقنا منذ البداية.

أذكر أحد معتقلي الثورة الذي تحوّل إلى رئيس للمهجع. نجح الذل في تحويله إلى عميل للنظام يعيش بيننا. كان الشاب يأكل أكثر منا؛ ويلبس ملابس رثة، في حين أننا كنا جميعاً عراة إلا من «السليب». كان الشاب يتعرّض للتعنيف والضرب، بالطبع، لكن بدرجة أقل مما نتعرّض له نحن. كان هذا الشاب يذلنا داخل المهجع بدرجة لا تقل عن ذل السجّان. أيضاً، كان بيننا معتقلون من الدفاع الوطني والمخابرات الجوية، عوقبوا لأسباب مختلفة. كان هؤلاء يعذبوننا ويذلوننا باستمرار: ينامون بيننا في أفضل الأماكن، في حين أن معظمنا ينام واقفاً بالتناوب بسبب زحمة المكان؛ ويأكلون وجبات حقيقة كاملة؛ ويتناقشون ويتكلمون ويمرحون بيننا؛ ويتحمّمون كل يوم بالصابون، في حين أننا لا نحصل على ربع صابونة واحدة إلا كل شهر أو شهرين ربما؛ وعندهم أدوية، في حين أننا لم نجرؤ يوماً على طلب خافض حرارة. كان رئيس المهجع يقف معهم حين نُعاقب، ويدلّهم على من خالف أبسط التعليمات بيننا. كان يجبرنا على أن «نفلّي» ثيابه من القمل، وأن نغسلها وننشرها.

رئيس مهجع آخر كان تاجر سلاح، ولا أعرف إن كان سُجن بسبب صلة ما مع الثورة أم لا. على أية حال، كان السجّانون يهددون المعتقلين

به: كانوا ينقلونه من مهجع إلى آخر ليتسلم رئاسته كعقوبة. كان يستيقظ ليلاً ليجبرنا على الزحف عراة على الأرض، وعلى شطف المهجع. قال مرةً: «رح ضل عذبكون يا كلاب لخلّي المخابرات الجوية تجي تتشفعلكون». وقد حصل ذلك مرات فعلاً.

من أساليب التعذيب كان إجبار المعتقلين على الكلام بشكل مسيء عن أهاليهم، وعلى الركوع على أربع وإصدار أصوات حيوانية، كالكلاب والقطط. تشعر أنك مغمّس في الذل أمام كل هؤلاء المعتقلين بعد هذه العقوبات.

أيضاً، كان السجّان يعاقب أحد السجناء بأن يضعه في وسط القاعة، ثم يطلب من كل سجين أن يصفعه بقوة. السجين الذي يتردد أو يرفض يُعاقب بشدة أكبر. من هنا، تنمو الأحقاد داخل السجن بين المسجونين أنفسهم.

أيضاً، كانوا دائماً يسعون إلى زعزعة ثقتك بأقرب الناس إليك. فلان اعترف على أفعالك، وفلان حكى عليك، وهكذا.. كانوا يجلبون المعتقلين ليواجهوا معتقلين آخرين. هكذا تجد نفسك فجأة في مواجهة أحد أصدقائك بعد حفلة تعذيب، ويقول لك في وجهك أنت كاذب ومتورط، وعليك أن تعترف لهم بكل شيء.

كانوا يكررون دوماً أن كل امرأة وفتاة شاركت من قريب أو بعيد في الثورة هي عاهرة، وينشرون كمية هائلة من الأكاذيب حول كل منهن. هناك نوع من البراعة والاستمتاع المخيف في تشويه سمعة النساء عند أولئك البشر.

أذكر مرة أن بعض الأصدقاء نجحوا في إقناع رئيس المهجع وشبّيحته بإعطائي رغيفاً كاملاً من الخبز في المخابرات الجوية. عادةً، عندما يحصل أي سجين على رغيف خبز، يتجمّع حوله بقية السجناء مستجدين

قطعة صغيرة. أعطيت بعض القطع الصغيرة لبعض معارفي، ثم لآخرين كادوا أن يبكوا وهم يطلبون قطعة. بعد فترة وجدت أن نصف الرغيف قد طار. فزعتُ، وما زالت الأعين تراقبني، والعشرات يستجدون. فجأة شعرت بضيق شديد وبأسى غير محدود، ورميت الرغيف لهم على الأرض يائساً. هجموا عليه وتقاسموه بشراهة وسعادة.

عندما رأى مساعد رئيس المهجع ذلك، عاقب من حصل على قطع الخبز وضربهم. ثم أتى إلي سائلاً: «كيف بتعطي الرغيف لهدول؟ هاد الرغيف إلك لحالك».

أجبت: «هدول جوعانين وما قدرت بس آكل لحالي».

عاقبني وضربني بشدة.

انفجرت بالبكاء كالأطفال؛ ذهبت إلى الزاوية وبكيت لمدة طويلة بشكل هستيري.

لا أعرف لماذا بالضبط.

قسماً بالله يا عدي لم أبكِ في السجن إلا مرتين؛ رغيف الخبز هذا أبكاني وكسرني.

أفكر أحياناً أن البشر يتعوّدون على كل شيء. أعني مع مرور الوقت يعتاد الناس على الظروف السيئة أو الجديدة المختلفة لحياتهم. ولكن لا أعتقد أن الناس يتعوّدون على الذل. ربما يعتادون على الخوف، كما هو الأمر خارج المعتقل. ولكن لا أحد يتعوّد على الذل، أو على ذل كهذا. لا أحد. لا أحد على الإطلاق.

عصافير الدوري

تعليمات السجن في صيدنايا تقتضي أن يجلس جميع السجناء

جاثيين، أيديهم وراء رؤوسهم ووجوههم للحائط، ما إن يدخل السجّان. عادةً ما نسمع صوت «البسطار» العسكري أثناء سيره إلينا من الممر الخارجي، فنتنبّه ونتخذ الوضعية المطلوبة فوراً. ولكن عصافير الدوري هي التي كانت تخبرنا بمقدم السجّان، في معظم الأحيان.

تدخل عصافير الدوري مبنى السجن، وتأكل بقايا الخبز والطعام المتناثر في باحاته. نحن، أيضاً، كنا نفعل ما تفعله هذه العصافير: كنا نجمع بقايا الخبز المتناثر والطعام من على الأرض، ونأكلها بنهم. كان لنا وجبة طعام صغيرة واحدة يومياً، وأحياناً كنا نُعاقب فلا نحصل عليها؛ كنا جوعى طيلة اليوم. نأكل قشور البيض أيضاً، و«نمصمص» العظم إن وُجد ونأكله، وكل ما يبقى على الأرض من أوساخ الطعام نأكله على الفور.

تتضارب مشاعرنا تجاه عصافير الدوري. عندما تكون جائعاً جداً جداً جداً، وتسمع صوت العصفور، تتمنى لو أنه يدخل المهجع كي تقبض عليه وتأكل لحمه حياً.

ولكن أيضاً ينتابك شعور ممضٌّ بأن هذا العصفور هو صديقك الوحيد في هذا العالم.

تطير عصافير الدوري عندما يقترب السجّان، لتخبرنا بأن نستعد، حتى قبل أن نسمع صوت «البسطار».

تعود عصافير الدوري عندما يرحل السجّان، لتتابع زقزقتها وبحثها عن بقايا الطعام.

أفكّر أحياناً أن هذا الدوري، وحده، كسر جبروت الأسد: يدخل غير آبه إلى سجننا، ليتعرّف علينا، وليخبرنا بمقدمهم، وليزقزق مستمتعاً بالحياة بيننا ومعنا.

هذا المخلوق الضعيف وحده هزم الطاغية.

يا سبحان الله!

نهاية ثائر العجلاني

(نشرت في «الجمهورية»، في 29 تموز 2015)

قُتل الإعلامي ثائر العجلاني في معركة من معارك جوبر، في ذلك الحيّ الذي طالما وقف على حدوده حالماً بدخوله فاتحاً منتصراً مع الجيش العربي السوري «البطل». رثاه النظام السوري بشكل رسمي وشعبي، من قوات الدفاع الوطني إلى وزارة الإعلام إلى وسائل الإعلام المحلية واللبنانية الموالية. قُتل الفتى الوسيم الذي جاب سورية طولاً وعرضاً مرافقاً «جنود الوطن» على خطوط التماس وفي الجبهات الأكثر اشتعالاً. رحل أحد أبرز إعلاميي سورية الأسد وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، أي من عمري أنا بالضبط.

شكّل الفتى ظاهرة مميزة في الوسط الإعلامي السوري. اجتمع حوله شباب وشابات الطبقة الوسطى والغنية المؤيدون والرماديون والمترددون والمعارضون «النظيفون تحت سقف الوطن». يشبههم ثائر العجلاني، يشبههم بملبسه ومنطقه ولهجته. يقترب منهم بشكل محسوس في كل تقرير بثقة مرحة وضحكة صافية يفتقدونها مع عسكرٍ وحزبٍ وميليشياتٍ يبتعدون عنهم بمسافة تكاد تساوي ابتعاد الإسلاميين على الضفة الأخرى. ثائر، كما كان جهاد مقدسي من قبل، نموذج يُقتدى في سورية

الأسد: الشاب الهادئ ذو المظهر المديني الغربي الحضاري، مع مسحة عسكرية تتمثّل في لحيته الطويلة وشعره القصير (في المقابل، لم يقترب جهاد من العسكرة بشكل مباشر). لا يتماهى معه فقراء العلويين وغيرهم من المحاربين، بل يتطلعون إليه كمثل محبوب. ساعده المظهر الحضاري المشرق الشاب على دخول الإعلام اللبناني الصديق. عدو ثائر، شكلاً ومضموناً، هو المحارب الفقير الأشعث في الغوطة الشرقية. على المرء أيضاً ألا يبالغ في ما قدّمه الفتى. لم يكن عمله فتحاً في تاريخ الإعلام، إلا أنه أعطى لجزء من الموالين ما لم يستطع الإعلام الرسمي والتقليدي تقديمه: صورة شخصية حية لما يريدون أن يكونوه، وما يجب أن يكونه أقطاب النظام أنفسهم: غربيّون في المظهر، لا عسكر وحرامية ومجرمي حرب موصوفين.

إضافة إلى ذلك، قدّم ثائر تقارير لطيفة عن الحياة اليومية في سورية، من دمشق إلى حلب إلى حمص، فيها حساسية إنسانية واضحة، وتجاهل تام لضحايا البراميل والحصار. تعتمد التقارير على تبسيط مبالغ فيه وعلى مناشدة المشاعر البسيطة لمن تعب من الحرب: الحياة اليومية شاقة، ونحن هنا لنوثّق لكم ما سبّبته الحرب، دون سياسة. هذه الصورة نجدها عند المنظمات غير الحكومية التي تخترق الثورة أيضاً، وفي المسلسلات التلفزيونية السورية. كما تميّز الإعلامي القتيل بشجاعته، المبالغ فيها كما يقول محبّوه. في كل معركة كان حاضراً على الخطوط الأمامية. كان ثائر، كما يبدو لي، صاحب قضية؛ دون أن نغفل أنه استفاد من عمله على جميع الصعد. قضيته ليست واضحة المعالم. هل يدافع عن بلده في وجه «الغزاة» القادمين من كل بقاع الأرض؟ هل يدافع عن إرث «القائد الخالد المقاوم»؟ هل يدافع عن «الحضارة»؟ عن «العلمانية»؟ عن «سورية الوطن»، التي هي أكبر من السياسيين؟ دافع

ثائر عن قضية، ولكن ليس من السهل أن نعرف أي قضية، وبراميل الموت تتساقط في كل مكان.

لهذه الأسباب كلها، شكّل ثائر العجلاني ظاهرة مميزة، ظاهرة تستجيب لتيار سوري عريض من أبناء الطبقات الوسطى والغنية الشابة.

سمعت بثائر العجلاني قبل سنوات، مع صعود نجمه المتسارع والثابت. عرفت الاسم فوراً؛ كان ثائر صديقي المقرّب في المدرسة الابتدائية، وفقدت كل أثر له لاحقاً. أتذكّره طفلاً طيباً ودوداً، ذكياً محبوباً من الأساتذة والطلاب. نفضت صورة الطفل من رأسي حين رأيت صورة المجرم القابض على الجمر على حدود الغوطة: رجل مفتول العضلات بسيجارة متدلية من فمه مستهتراً بمن يعيش هناك تحت الحصار والبراميل؛ ترتفع أسهمه مع ارتفاع عدد القتلى وشدة الحصار.

اليوم، قُتل الرجل ونجا الطفل. لم أستطع ألّا أحزن. شاهدت بعض تقاريره المتلفزة. احتفظ ثائر بالنظرة الطفولية البريئة، وبأنفه الضخم المدبب المميز اللطيف. للطفل الهازل النحيف القصير نسبياً نهاية مأساوية؛ دافع عن قضية خاسرة أخلاقياً، وتورّط في أبشع أنواع الدعاية الفاشية. أقول لنفسي: لا تحزني، مستدعياً صور البراميل في الغوطة. لا تطاوعني نفسي؛ بقي ثائر في عينيّ طفلاً مرحاً قادماً من زمن بعيد. في المقابل، لم أستطع ألا أفكر بعدالة القدر الذي قتله في جوبر تحديداً! أية نبوءة جميلة سيحملها هذا الموت لصمود جوبر الأسطوري!

قُتل صديق الطفولة، هناك في جوبر، مدافعاً عن قضيته.

ولكن أية قضية يا ثائر؟ أية قضية؟!

كم أنت وحدكَ!

(نشرت في «القدس العربي»، في 11 أيار 2014)

لا بحر لهم. يخرجون بسلاحهم كأنه المدينة نفسها، كأنه العائلة والذكريات. كل أرض الله منفى. لا نستطيع التمييز بين من بقي في حمص ومن خرج منها.

مطر في دمشق. كأن الله يُطمئن من لن يطمئن بعد الآن. تحرير مخطوفين في ريف اللاذقية. رائحة الأرض تصل طازجةً. نستحضر بيروت وفلسطينييها. «كم أنت وحدك!». لا نستطيع التمييز بين من دُفن في حمص ومن بقي فيها. الساروت ظلّنا العالي. صور القتلى تغطي اللاذقية. لا نستطيع التمييز بين من قُتل في حمص مدافعاً ومن قُتل غازياً. لكل قتيل شفيع لا مرئي. لا يبدو أن لحائط الشهداء في طرطوس نهاية. يتردد صوت طارق الأسود مسموعاً في أنحائها: «إن جيتك يمّا مستشهد زغردي». سيستشهد بعض الخارجين في أرض غريبة. ليس الخروج إلى بحر. في أرض غريبة سيدفنون دون زغاريد. بين قاف العلويين والضمة الحمصية، تزغرد النساء في شطري حمص. لا نستطيع التمييز بين دمع سفكناه على شهداء الاعتصام الأشهر، ودمع سفكوه على

شبابهم الذين قتلناهم دفاعاً عمّا كان يوماً مدينتنا. في كل مقهى ركن لقتيل يفضّله. لكل قتيل أمّ ترتبك بملابس ابنها التي تنتظره معلّقة في خزانة لا يفتحها إلا الأم يومياً قبل النوم. لكل قتيل أغنية مفضّلة وابتسامة كبصمة الروح. تختلط الذكريات والدمع والقتلى. سيأتي زمن لا نعرف فيه أي جثة نقف فوقها. لكل قتيل أب يتماسك أمام المعزّين ببلاهة لا تخدع أحداً. في كل زاوية ذكرى ستزول غداً. يستبدل المنتصر بكل الذكريات صورةً واحدة. على جثث آلاف الشباب العلويين سترتفع صورة واحدة في حمص. لا سماء ستُظِلّ الخارجين بعد اليوم. خلفهم روم وعلى جانبيهم الفرس. لا بحر ولا سفن ولا تحية عسكرية للخارجين. يحملون المدينة في ترحالهم ومفاتيح كأنها فلسطينية. رحمانينوف يعزف البيانو وحيداً. تتشابه المنافي. لا احتفالات نصر ولا رسائل تعاضد. لا شيء سيُظلّ الخارجين بعد اليوم. لا سماء في المنافي. مطر في دمشق. صورة واحدة ستغطي شطري حمص. سيأتي زمن لا نعرف فيه مدينتنا. على جثث آلاف الشباب السنّة سترتفع صورة واحدة. مطر في دمشق. لا بحر أمامهم، لا بحر خلفهم. للخارجين كل أرض منفى. والمنفى ليس إلا بداية. صورة واحدة. آلاف القتلى. مطر في دمشق. هزيمة لا مراء فيها. لا سفن لنا يا الله. لا موانئ تستقبلنا بالتحيات والقبل. يخرجون بسلاحهم كأنه المدينة ذاتها، كأنه العائلة والذكريات. يودّعون الأرض ساجدين. والمنفى بدايةٌ. لا زغاريد في المنفى. صورة واحدة ستغطي على المأساة بأكملها.

هزيمةٌ لا مراء فيها. ولكننا سنحتفل بالخارجين كما احتفل الفلسطينيون بأبطالهم الخارجين إلى البحر. لا نشكّك بالخارجين. نعرف أنهم بذلوا كل ما بوسعهم للبقاء. توجّه ياسر عرفات إلى فلسطين في النهاية، شبه مكسور، كبطل تراجيدي. لا يحمي الظل العالي أحدنا

من الانكسار. ولكن يحمينا الأمل. بيروت تحررت من الاحتلال. لا نعرف ما الذي سيحلّ بحمص. لا بحر ولا سفن ولا انتصارات للخارجين. ولكننا نعرف أنهم بذلوا كل ما بوسعهم. نعرف أيضاً أن الأمل سيحمينا من الانكسار. ونعرف أن الخارجين لم ينكسروا. لا ينكسر من معه مثل هؤلاء. لا يفقد الأمل من بحره فيه. كل أرض الله موانئ للخارجين. ولنا الأمل والعزيمة في ما سيأتي.

مع الجيش الحر: خلف خطوط الجبهة

(نشرت في «الجمهورية»، في 10 حزيران 2013)

في زيارة سريعة للمناطق المحررة في مدينة حلب، التقيت بمقاتلين من كتائب مختلفة. وأمضيت وقتاً طويلاً مع مقاتلي كتيبة أحرار الثورة، من لواء أنصار محمد التابع للجيش الحر، وذي السمعة الطيبة في حلب. هنا محاولة لرسم بعض ملامح هؤلاء المقاتلين. لا أدّعي رسم صورة كاملة للجيش الحر في حلب، ولا حتى تعميم هذه الملاحظات على مقاتلي الكتيبة الواحدة. كما لا أدّعي تقديم دراسة نظرية. نريد التفكير بالمحاربين بطريقة مختلفة، خارج السياق العسكري-السياسي. عسكرنا أكثر من حاملي سلاح وبيادق في المعركة. نريد رؤيتهم كبشر، لهم همومهم وآمالهم ومخاوفهم.

وراء خط الجبهة يعيش المقاتلون كما يعيش المدنيون. من هنا نبدأ.

كيس سكر

التقينا في أنطاكية مع مصابي الجيش الحر. تتراوح أعمار الشباب بين العشرين والخامسة والعشرين. لم يحكِ البعض قصته. لم يشعروا بالراحة لوجود شابين من الطبقة الوسطى الدمشقية. حاولنا كسر هذا

الجمود، ولكن إقامتنا كانت قصيرة جداً للنفاذ إليهم. تكلم اثنان منهم بصراحة. الأول هو المعيل الرسمي للشباب، عن طريق بعض المساعدات المادية التي يتلقاها من أقاربه في الخليج. تصل أيضاً مساعدات أخرى صغيرة من بعض الأقارب للشباب الآخرين ومن عائلاتهم في حالات نادرة من الداخل السوري. باستثناء هذه المساعدات البسيطة جداً، لا يوجد أية معونة من أي طرف معارض رسمي أو غير رسمي. هذا المكان هو نموذج فقط. يتكرر الأمر مع آلاف الجرحى. زارهم العديد من المؤسسات والتنظيمات. طالبهم الجميع بالتقاط الصور معهم، مشترطين في بعض الأحيان أن يحملوا ما يدل على الجهة الراعية، قبل أن تتم العمليات الجراحية المطلوبة. جُمعت المعلومات والبيانات المطلوبة لهذه العمليات عشرات المرات. في معظم الأحيان لم تصل المساعدة.

البيت الذي يسكنونه متواضع جداً. ينامون على فرشات شبه عفنة. أريكتان مهترئتان، طاولة صغيرة، وأركيلة. ينام في البيت حوالي عشرة أشخاص، قد يزداد العدد ليصل إلى عشرين، حسب الواصلين الجدد. للمساعدات البسيطة التي يرسلها المغتربون، على صغرها، الدور الأساسي في حياة هؤلاء.

الشاب الثاني الذي شاركنا تجربته كان عماد، وهو مساعد مهندس من مدينة حماة. كان عماد يعمل في مجال البرمجيات، بمرتّب عالٍ بالنسبة لسورية ما قبل الثورة. عند قيام الثورة، كان في الجيش، وفي وضع مريح نسبياً. انشقّ عماد في الأشهر الأولى للثورة. عماد شاب وسيم تشعر براحة فطرية في وجوده. لبعض الناس القدرة على الولوج إلى أسرار الحياة دون تعقيدات. تبدو الحياة لهم معطىً بديهياً. قصصه وحضوره تذكّرني بوالت ويتمان: سعي لا يتوقف، مصدره إيمان بخلاص

آتٍ، يرافقه قبول نبويّ بالخسارات. شارك عماد في المظاهرات السلمية منذ بداياتها، قبل أن ينشقّ. بعد انشقاقه كان من أوائل من حملوا السلاح. في ما بعد تنقّل بين كتائب الحر. لعماد وجهة نظر طيبة بالكتائب الإسلامية، وبضمنها النصرة. ولكن له شكوكه في ما يتعلق ببرامجها. مع كأس الشاي الثقيل، جلس عماد يشعل سيجارة تلو الأخرى.

ـ «ما عمتزبط من عند الركبة. عمتجرحني شوي محل ما لازم أربطها». فكّ عماد ساقه الاصطناعية.

ـ «عماد احكيلون للشباب عن الرجل يلّي ركّبتها قبل هَيْ، تبع الجلابية».

ـ «والله شو بدي أحكي؟ يا سيدي رحنا عند جماعة خير، بيركّبو كل الرجلين نفس المقاس، شو ما كان طولك ووزنك. ومن تحت عريضة كتير، يعني ما فيي ألبس بنطلون بحياتي. أستغفر الله، بس منظرها بيكشش البدن، وما بتعرف تمشي فيها منوب. وزنها لحالو بيخليني أعرج».

ـ «كان لازم تشوفو هو وحاطط رجل أعرض من خصرو، بيموّت من الضحك».

ـ «قلنالون يا جماعة زبطوها شوي، كرمال النبي. قال: «موعاجبك... امشي من هون! ما بيكفي عمنساعدك، وبدك تتشرّط!»... حسيت حالي عمبشحد».

ـ «خسا يا عماد، كلّو مكتوب عند رب العالمين».

ـ «احكيلون للشباب عن الإخوان»، ينفجر الشباب بالضحك.

ـ «هات لنشوف».

ـ «يا سيدي استبشرنا خير، قلنا هدول عالم بيعرفو الله. أخدونا وجابونا شي عشرين مرة. وعلى معلومات وصور، وبيبعتو الصور يشحدو

علينا فيها. لحد ما قلتلون: خلصونا! قال: «والله يمكن ما يمشي الحال». وكانو واعدينّا بشوية مصاري لنأمّن أكلنا هون. المهم، أنا وطالع، الحجّي نادى للشب عندو بالمكتب. قال عطيهون كيس سكر للشباب يدبّرو حالون»، يردد الشباب «كيس سكر» في كل مناسبة. إن جاع أحدهم: «أعطيه كيس سكر»، إن تأخر أحدهم: «شو كنت عمتجيب كيس سكر؟»، إن اتصلت بهم منظمة خيرية: «الله يبعتلنا كيس سكر».

نام عماد، بساقه المقطوعة، في الحدائق العمومية في أنطاكية في بعض الليالي، قبل أن يلتحق بهذا البيت. قال له أحد الأطباء إن ساقه كان من الممكن معالجتها مبكراً، ولكنها تعفنت نتيجة الإهمال. كان من الممكن لقليل من المال أن ينقذ الساق. «الحمد لله على كل شي. الله وكيلكون ماني زعلان ع رجلي. في ناس استشهدت. أنا والله مو زعلان غير عالذل يلّي عمننذلّو هون. كيس سكر لكن! إلنا الله».

كتيبة أحرار الثورة

في معبر باب الهوى، التقينا أبو عدي وأبو باسل من قادة لواء أنصار محمد. أبو عدي في بداية الأربعينيات، لصوته غنة دمشقية محببة. حين التقيته في باب الهوى، لم أشعر بالارتياح. بالمقابل، شعرت بارتياح مباشر لأبو باسل. ربما لأن أبو باسل صديق أبو مأمون، زميل الرحلة إلى الداخل السوري. أبو باسل في بداية الثلاثينيات، هادئ كحكيم صيني. كان هذا لقائي الأول مع قادة في الجيش الحر. بعد عدة دقائق، اكتشفت أنني لم أتعلّم بعد كيف أتواصل مع من يختلف عني. كان شعوري بالارتياح لأبو باسل عائداً بشكل رئيسي إلى شبهه بي. يلبس أبو باسل بنطلون جينز وقميصاً أبيض، ويبدو أقرب إلى أحد الشباب «الكوول» في الشعلان منه إلى مقاتل على الجبهة. سمعت في ما بعد عن شجاعته في المعارك.

أما أبو عدي فكان يلبس لباساً عسكرياً، مع لحية غير مشذبة. اختفى عدم ارتياحي سريعاً، قلة من العسكر تتبسّط في حديثها مع الغرباء منذ اللحظات الأولى كما فعل أبو عدي. يتمتع الرجل بذكاء عملي مباشر، وطيبة قلب تجعله أقرب إلى أب للشباب المقاتلين منه إلى قائد ميداني. اعترض أبو عدي على قرار الهيئة الشرعية بمحاصرة المناطق التابعة للنظام وقطع إمدادت الطعام الواصلة إليها من الريف الحلبي، فهو يرى أننا نتشبه بنظام بشار في هذا القرار. عند دخولنا لمخيّم أطمة، تذمّر الرجل بصوت لا يكاد يُسمع: «يا أخي والله لو ما بدنا ناخد الشب يشوف أهله، ما فتت عالمخيّمات. والله قلبنا ما بيتحمّل هيك مناظر».

كان أبو باسل يعمل في السعودية، بمرتّب ممتاز وحياة مرفهة. بمعنى ما، هو فعلاً شاب «كوول». سألته: «ليش رجعت؟ وليش بدك تحارب؟ مو كان أسهلّك تشتغل بالإغاثة والعمل المدني؟». لأبو باسل وجهة نظر أخرى. يرى أبو باسل أن واجب الشباب السوري المتعلم وأبناء الطبقة الوسطى الانخراط في الجيش الحر. الانسحاب من المعركة والتذرع بالانخراط في العمل الإغاثي والمدني والإعلامي (على أهميته) يجعل الجيش الحر بأيدي غير المتعلمين والمتأسلمين. إن كان لنا دور في هذه المعركة، فيجب أن يكون بشكل أساسي من خلال الانخراط في الجيش الحر، كمقاتلين. أو، بأقل الأحوال، علينا أن نحافظ على وجودنا في المناطق المحررة مهما كلف الأمر. الابتعاد عن ساحات القتال، والهرب إلى الخارج، يعني أن نترك سورية لغير المتعلمين. أيضاً، لا يجوز أن نقبل بأن تتحرر سورية بدماء فقرائها وحدهم.

ترك أبو عدي عمله المريح مادياً في ليبيا وعاد ليحارب. ويبدو أنه شارك في الثورة ضد القذافي. متزوج وله أولاد. يوافق أبو عدي أبو باسل. معظم مقاتلي الجيش الحر هم من غير الجامعيين، أو حتى

غير الحاصلين على الشهادات الثانوية. تكاد تخلو المناطق المحررة من الجامعيين وأبناء الطبقة الوسطى. ينعكس هذا على مجمل التنظيمات وأسلمتها. إن كانت الثورة قد تأسلمت سياسياً، وشابها الكثير من الأخطاء، فليس هذا ذنب المقاتلين والهيئات الشرعية، بل ذنب من ترك البلد حين مسّت الحاجة إليه، تاركاً فقراء سورية وراءه.

مثل أبو باسل، يلوم أبو عدي أغنياء سورية ومتعلميها ومثقفيها لهربهم. «يا زلمي مع محبتي للشيخ معاذ، نزل ساعتين ع منبج، ومشي. يا أخي كرمال الله زيارة ع حلب. يقعدوا معنا، يحكوا معنا. وينو هاد الائتلاف والمجلس والهيئة؟ لسّا حكي فاضي وبهادل عالتلفزيون، الله يبهدلون!». بلهجة الأستاذ، يقول أبو باسل: «اسمع، هاد الحكي يلّي لازم ينحكى... لازم ينزلو يعيشوا متل هالعالم، بحلب وإدلب والرقة، بالدير والغوطة الشرقية. شو هنّن أغلى من هالعالم يلي عمتموت كل يوم؟». لا وجود على الإطلاق لأي تمثيل في الأراضي المحررة لمن يدّعي تمثيل الشعب السوري. هنا الجيش الحر، الكتائب الإسلامية، الهيئات الشرعية، والمجالس المحلية.

في الأيام اللاحقة، اكتشفت أن أبو عدي يتبع سياسة العصا والجزرة مع المقاتلين. لا يوجد في الكتيبة، أو اللواء بشكل عام، تراتبية صارمة. ربما كان هذا ينطبق على معظم تشكيلات الحر والكتائب الإسلامية. لا يوجد هنا جيش بالمعنى المعروف لهذه الكلمة. التسليح المتواضع ونقص الذخيرة، والعلاقات الأبوية في التشكيلات، تجعلنا نؤكد مرة أخرى أن المصطلح الأدق هو المقاومة الشعبية. يتم تقييم المقاتلين قبل كل شيء بناءً على شجاعتهم على الجبهة، هذا هو المعيار الرئيس للاحترام هنا. انعكس هذا بوضوح في علاقة المقاتلين معنا. اكتسبنا بعض الثقة حين زرنا الجبهات وقضينا بعض الليالي في المقرّ على الجبهة. لم نعد فتية

العاصمة المدللين فقط. بدأ بعضهم يتكلم معنا بأريحية. دخلنا عالم العسكر.

الشيخ ربيع

التقينا الشيخ ربيع في مقر كتيبة نور الدين الزنكي في إحدى مدارس حلب. للرجل ابتسامة محببة ورغبة بالكلام. كان الشيخ ربيع يتذمّر من انتشار عمليات السرقة. تحاول بعض الكتائب الحد من الفلتان الأمني المنتشر، ومنها لواء الأنصار وكتائب الزنكي.

يرى الشيخ ربيع أن البلد متروكة لمن هبّ ودبّ: «وين المشايخ؟ وين العلماء؟ وين يلّي بدو يفتي ويحل مشاكل العالم؟ شو عم يعملو بتركيا وقطر؟ يا أخي أنا رجل مسلم وملتزم، بس معظمنا ما بيفهم بالدين. وين دعاة الدين الصحيح والمعتدل؟ ليش تاركين البلد للنصرة والقاعدة وغيرها؟ تاركين البلد لكم شيخ يفتوا أنو سرقة المعامل حلال؟ أنو هي غنائم؟ له يا رجل! كل شي إلا السرقة. كل شي إلا هَي. والله ما فينا لحالنا نساوي كل شي».

سألته قبل انتهاء الحديث: «شيخ ربيع، شو كنت تشتغل قبل الثورة؟». يرتبك الشيخ للمرة الأولى في حديثه المنساب بجمال وصدق، ينظر بطرف عينه إلى أبو باسل والملازم رضا، يجيب: «كنت عامل». يصمت لثوانٍ، ويبتسم ابتسامة صاحب الأرض الصغيرة لجابي الضرائب: «كنت أنا الجابي، وله الأرض وما عليها. تعلّمت من أبو باسل أن أرفض ما كُتب لي». سألت الشيخ بصوت حاولت أن يبدو طبيعياً: «شو بدك تعمل بعد الثورة؟ رح ترمي السلاح وترجع عشغلك؟». «لأ.. يعني إيه؟ حسب. إذا أجت حكومة تطبّق شرع الله الصحيح». هنا لم أفهم بالضبط ما الذي يخشاه الشيخ ربيع: النصرة وأشباهها من جهة، والعلمانيين من

جهة أخرى، والغرب وإسرائيل، وقطر وتركيا، بقايا النظام، والمعارضة التقليدية. على أكتاف الشيخ ربيع يقع همّ الثورة كله: يخشى أن تُسرق الثورة. لا حليف للشيخ ربيع في هذه المعركة. تبدو هذه مخاوف الكثير من المقاتلين. لا ثقة بأحد. تُرك السوريون ليواجهوا النظام وحدهم، لا يخشون فقط من عنف النظام، بل ما بعد سقوطه أيضاً.

أحد مقاتلي الزنكي يشرح لي: «نحنا واللواء ويلّي بيشبهونا ما عنا تمويل. لتاخد تمويل يا بتكون قاعدة، يا بتكون علماني. غير هيك، ما في سلاح». أكّد لي أبو عدي وأبو باسل صحة هذه الآراء. الدعم الوارد لقيادات الحر يكاد يتوقف. للكتائب الإسلامية صِلاتها، ولكن حتى هذه لا تتمتع بدعم واسع، كما يشيع النظام. سألته: «وليش أنت ضد القاعدة؟»، ارتبك قليلاً. «لأنو إسلامون غير إسلامنا، لأنو كتير متشددين، وعم يهدّوا مقاماتنا. ولأنو كلون أجانب. ما بيحترمونا. نحن مو قاعدة. لا بيشبهونا ولا بنشبهون». كان المقاتل في بداية العشرينيات، له لحية طويلة وشوارب محفوفة، وخلفه علم القاعدة الأسود (الذي لا يمثل القاعدة بالضبط، في بعض المناطق)، وعلم الثورة. «طيب والعلمانيين؟». «شو والعلمانيين؟ هدول جماعة بشار. هيك منكون ما ساوينا ثورة. رجعنا متل ما كنا. أخي نحنا إسلامنا معتدل. لا هيك ولا هيك».

عسكر وأطفال

طفلة في التاسعة تلوّح لنا: «الله يحميكون». عشرات الأطفال في مخيّم أطمة يركضون خلف السيارة: «الله محيّي الجيش الحر». أطفال بستان القصر يتجمعون حول أبو بشير الذي يعرفونه جيداً، محاولين إقناعه بأن يريهم كيف يستخدم بندقيته. علي ومحمد يلهون مع أطفال العامرية. في السيارة، يقول أبو عدي: «وقت بكون هيك مخنوق، هاي

البنت الصغيرة بترجّعلي كل إيماني بهالثورة». يرد أبو باسل: «يا ريت الكبار بسورية يكونو متل هالولاد. عالأقل نحسّ بقيمة يلي عمنعملو».

لم أستطع أن أنظر إلى عسكرنا إلا كأطفال يلهون بأسلحة ليست لهم. بحزن أفكر بعسكر النظام. هل كل العسكر أطفال؟

في المشهد الأخير من فيلم «مذاق الكرز»، نرى العسكر يلهون في مرج أخضر مفتوح، كما نرى طاقم الفيلم مع كاميراته يصوّرون الجنود. تضيف الموسيقا بعداً مأساوياً لمشهد موت لم نره في الفيلم، لوي آرمسترونغ، في أغنية من تراث الموتى وحروبهم هناك. هذه هي المذبحة السورية. قصة الكاميرات التي تصوّر سقوط السكود يومياً على أفقر أحياء سورية.

ليس هذا ما يريده كياروستامي من المشهد. لا بأس. يبقى في المشهد السوري مذاق الكرز، والأصدقاء في السينما الإيرانية، والجاز الأمريكي. وكاميرات تصوّر السكود، وعسكر وأطفال... وأمل بمستقبل أفضل.

مرايا حلب

(نشرت في «القدس العربي»، في 28 أيار 2013)

زرت المناطق المحررة في مدينة حلب زيارة قصيرة، استمرت خمسة أيام من أيار الجاري. كنت أودّ أن أفهم، من خلال وجودي على الأرض، ما الذي يجري هناك. ولكن يبدو أن محاولة الإحاطة بالوضع في حلب تتطلّب العيش فيها. ربما كانت محاولة فهم ما يجري بصورة كاملة، حتى بالنسبة لمن يعيش هناك، مستحيلة. كنت أتمنى أن أفهم ما فهمه أبو غالب. ما يلي مرايا لواقع حلب. لا ناظم للصور في المرايا، سوى أنها تعكس جوانب من الواقع. قد لا تشكّل الصور لوحة كاملة. ولكن، من قال إننا نريد لوحة كاملة، أو أننا قادرون على رسم لوحة كاملة؟

بعد المرور بجانب مدرسة المشاة بحوالي عشر دقائق، بدأت السيارة دخول حلب. أسأل نفسي: هل هذا الخراب والبؤس نتيجة القصف العشوائي من قوات النظام، أم نتيجة سياسة إفقار استمرت أربعين عاماً؟ يختلط هنا البؤس الموروث من حقبة الاستبداد، وما قبلها، ببؤس مضاعف يجرّه عنف النظام وغياب للخدمات الرئيسية. يبقى السؤال معلّقاً كلما توغلنا أكثر. لا فاصل بين أبنية مدمرة من حقد الطائرات وأبنية شبه مهدّمة بالأصل. لا يصدمك عند دخول حلب الدمار الناتج

عن القصف، بل بؤس مقيم، يجعل الدمار الجديد يؤاخي دماراً سابقاً مديداً. هكذا تبدو الثورة امتداداً طبيعياً لما قبلها.

متى عاد المدنيون؟ عادوا بالتدريج. لا مكان يذهبون إليه. لم يحتملوا ذلّ المخيمات، في الداخل السوري أو في تركيا. الحياة هنا أفضل. ماذا عن القصف؟ يدفنون موتاهم، ثم يكملون حياتهم. والماء؟ يحفرون «الجبب» (الآبار). والكهرباء؟ يشترون المولدات. والمازوت؟ انظر حولك. لدينا كازية كل 15 متراً. بعد أن استولت الكتائب الإسلامية على بعض آبار النفط، يقوم الناس بتكرير النفط بأيديهم. رأينا بعض هذه الورش في ريف حلب. ساعدت هذه الورش الناس على البقاء على قيد الحياة، وكسرت احتكار النظام للمازوت والبنزين. ولكن بأي ثمن؟

خط الجبهة داخل المدينة يكاد لا يفصل المدنيين عن العسكر. قال أحدهم: يخشى المدنيون من السكود. أن تحيا بجانب العسكر على خط الجبهة أكثر أمناً. لا سكود هنا، فقط قذائف عادية. قال آخر: في عزاز، ينام الناس في البرية، ويعودون إلى بيوتهم صباحاً. هكذا يتفادون السكود. تعجّ المدينة بالناس. سوق الفردوس مكتظ عن آخره. القاطرجي لا جيش فيها، لا حر ولا نظامي ولا إسلامي. عادت الحياة إلى بعض المناطق المحررة. لا خوف هنا إلا من قذائف النظام، وتشبيح بعض عناصر الحر والكتائب الإسلامية. عدا ذلك، حلب تنبض. يعيش الناس هنا كما يعيشون في أي مكان آخر. كل ما في الأمر أن الموت أكثر تواتراً.

دخلنا بيوت المدنيين المهجورة على خطوط الجبهة، في كرم الجبل والعامرية والشيخ مقصود. طلقات متفرّقة تُسمع أحياناً. في البداية، كنت أخشى العبث بمحتويات البيوت. أردد لنفسي: «للبيوت حرمة». كلما كان حجم الدمار أكبر، خفَّ شعوري بالذنب. مع مرور الوقت، اعتادت عيناي

مشهد الخراب. تنسى للحظات أن هذا الخراب كان يوماً بيوتاً مسكونة. نتجوّل في داخلها، ونبتعد عن النوافذ المشرّعة لقنّاصين يطلقون بعض العيارات للتسلية ولقتل الوقت. أصوات التكبير ترتفع، ويردّ عليها جنود النظام بطلقات متفرقة وشتائم ضجرة. تعرّضت البيوت لعمليات تخريب وسرقة من طرفَي القتال. يحاول الجيش الحر الحدّ من عمليات السرقة. من قمصان تنتظر أصحابها، إلى فساتين لا تكشف الكثير، وعشرات الملخّصات لطلاب لم يتقدّموا لامتحاناتهم، ومطابخ لا تتشابه إلا بنفاد الطعام (لا طعام فاسداً على الجبهات، جنودنا الجوعى على طرفي القتال استهلكوا كل الطعام)، وحمّامات غير قابلة للاستخدام، تشعر بروح البيت كخيط غير مرئي، يسخر منك كلما حاولت لمسه، لكنه هنا، كروح لا تغادر، إلا إذا دُمّر البيت عن بكرة أبيه. في الأبنية المهدمة، لا أرواح تعيش.

صرتُ أعبث بمحتويات البيوت شارداً. لا تستطيع هنا ألا تشكّ بالثورة. لماذا كل هذا الخراب؟ بعض البيوت مقفل بحبل مربوط بين دفتي الباب، بيت آخر بسلسلة معدنية. مطبخ أحمر داكن، وغرفة نوم الأطفال زرقاء وصفراء. شعرت برجل في بداية الثلاثينيات، وزوجته في آخر العشرينيات، يتناولون العشاء. انسحبت بهدوء، وأغلقت الباب. لم أدخل بيتاً آخر بعده. في الشارع، بين المسلحين الملتحين، بابتساماتهم الصافية، يطالعنا «كشك الغرام». على الجانب الآخر من الطريق، لافتة «سنعود بعد قليل». شجرة توت صغيرة وسط الخراب تدعوك للابتسام. صوت رصاص عادي يرافق اكتشافي لها. أطفال يلعبون في بركة مياه آسنة على بعد أمتار قليلة. عاد بعض المدنيين.

حلب، حقد الطائرات وقذائف النظام والسكود (السكود، ليس سلاحاً فقط)، وفشل الثوار المسلحين في إدارة شؤونها، يجعلها أشبه

بهذه البيوت. لا الروح تغادر، ولا البشر يدركون روح المدينة. سقط النظام هنا، ولم تستعد المدينة روحها.

الكنيسة الأرمنية في الشيخ مقصود مهجورة. بين عشرات المسلحين الملتحين، المبتسمين، القساة كأطفال يلهون بأسلحتهم، منتظرين الموت القادم من الجنوب، تقبع الكنيسة الصغيرة مستسلمة لقدرها. التخريب داخل الكنيسة بسيط، ويبدو أنه لا يتعدى عمليات تفتيش سريعة. لا أثر لتخريب طائفي متعمّد. ألبوم صور لحفلات تعميد، ثوب الكاهن الزاهي الألوان، وكتب باللغة الأرمنية، كلها مبعثرة على الأرض. فقط تماثيل العذراء وصور المسيح على المذبح. شاب في العشرين اخترقت رصاصة قنّاص وجهه، ولكنه ما يزال سليماً. لا يستطيع الكلام أو الابتسام. تعود الحياة تدريجياً هنا، في آخر المناطق المحررة. يُحكى أن الشيخ مقصود بأكملها تعرّضت لعملية نهب منظمة من بعض فصائل الحر والكتائب الإسلامية. سُرقت بيوت العرب والأكراد والأرمن، لا فرق. تقع المنطقة على تل يشرف على مناطق واسعة من حلب، ما يجعل مشهد الغروب يشي بما لا نريد قوله. طائرات النظام تحوم فوقنا. أين سيصبّ الطيار حقده؟

في المدينة القديمة، منعتنا الشرطة العسكرية الثورية من استخدام الكاميرا. دخلنا مع سائق تكسي لا تفارقه الابتسامة. «أنا ما بطلع من بيتي، وهي الحمد لله عايشين». الأمور مضبوطة هنا. في الطريق إلى الأموي، ترى المحلات مغلقة بإحكام. يبدو أن الحر والكتائب الإسلامية نجحت في السيطرة على المنطقة، وفي الحد من عمليات السرقة المنتشرة. بالنسبة لي، كان وضع المدينة القديمة أفضل بكثير مما تصوّرت. بعض الأسواق سليمة تماماً، ولا أثر للحرائق. الخراب محدود. أشار المقاتلون إلى أن بعض الأسواق تعرّضت لقذائف مباشرة، ولكننا لم

نكمل طريقنا إليها. مدخل الأموي مخرّب، والمقاتلون المرابطون هناك مضيافون. دار الحديث حول تحريم الدخان من قبل النصرة وبعض الإسلاميين. شرحوا لنا كيف أنه لا يجوز للأجانب أن يفرضوا رأيهم على السوريين. أحد المقاتلين الذي لم يتجاوز الثانية والعشرين، بلحية غير مكتملة وشوارب محفوفة، مع عصبة «القاعدة» السوداء على الرأس، يتذمّر من تدمير المقامات وتعامل النصرة مع الحلبيين. لا تأخذنّك المظاهر، أردد لنفسي. هذا المقاتل أكثر انفتاحاً ممن يلبسون ربطات عنق أنيقة. في الجهة المقابلة، المئذنة المهدّمة. سماحة المقاتلين، والشاي الثقيل، الجو الصافي والعصافير، وشبح حلب القديمة الذي يتلبّسنا جميعاً، يجعلنا ننسى للحظات ما الذي يجري. «لا تبعّد، القناص بيجيبك هنيك». أتذكّر الواقع. يكشف قنّاص القلعة صحن الجامع وقلبه وصولاً إلى المنبر. الجامع تحت سيطرة الحر، ولقنّاص النظام اليد الطولى فيه. صورة مصغّرة لما تعيشه المدينة.

في مخيّم أطمة، التقينا أبو غالب. أصيب أبو غالب في معركة الإخلاص في حلب، التي سيطر بعدها الحر على أجزاء من الراموسة. أبو غالب في السابعة والعشرين، وكمعظم من التقيناهم من المقاتلين، له نظرة بريئة كطفل ينتظر والدته لتجهّز العشاء. شربنا الشاي، واستمعنا لقصص الفارّين من قصف همجي. كان أبو غالب، الأعزب، عاملاً في لبنان قبل الثورة، ويعيل أسرته كبيرة العدد. عاد ليشارك في الثورة ويحمل السلاح. سألته: «أحياناً وقت تكون لحالك، ما بتندم؟ ما بتقول يا ريتني ضلّيت بشغلي؟». لا. أبو غالب مطمئن وراضٍ. لا أثر لندم في صوته، أو في ابتسامته، أو في حركاته. لم يتلقَّ أية مساعدة من أي طرف كان. حتى عندما لاح بريق أمل، لم يستطع أبو غالب السفر، لأنه لا يملك جواز سفر. تتكرر القصة مع مئات المصابين. لا جواز سفر للفقراء.

أبو غالب مصاب برصاصة في ظهره، ويعاني من شلل نصفي. البارحة فقط، حرّك رجله اليسرى قليلاً. يشير لنا أبو باسل بالرحيل. أبتسم لأبو غالب، «آخر سؤال، من بعد إذنك. إذا بدك لا تجاوب. شو بدك تعمل بعد ما يسقط النظام؟ أنت شخصياً شو حابب تعمل؟». ينظر أبو غالب إلى روحي المنهكة. يبتسم بتعاسة. يدمدم: «اللّه كبير. فهمت عليي، ما هيك؟». أجيب: «إيه، فهمت». أقبّله. أشعر أنه يكاد يبكي. أرتجف كطفل ينتظر أمه التي لا تأتي.

لم أفهم. بعض الأمور ليست قابلة للفهم. عشرات الأطفال يتزاحمون على الماء في السكري. أوامر بعدم تصوير المشافي كي لا يقصفها النظام. كلام متواتر عن «غنائم» يبرر السرقات في وضح النهار. أبو حذيفة يضحك بمرح، ويبدو كإرهابي حين ينظر بعيداً. معابر مفتوحة على المجهول، وعيون منقّبة في سواد كالح تفتنني. ناشطون مدنيون يؤكّدون، باقون هنا، لا قصف يخيفنا، ولا نصرة.

لم أفهم ما اعتقد أبو غالب أني فهمته. ولكنها ثورة أبو غالب. له علينا ألا نيأس، حتى لو لم نفهم. له علينا أن نحاول ما استطعنا، حتى لو لم نملك بصيرته. لا بأس، مرايا حلب لا تعكس الصورة الكاملة. هي مرايا لمن لا يبصر بروحه ما يراه المختارون.

الحدائق

(نشرت في «القدس العربي»، في 1 أيلول 2011)

«وذكر ناشطون أنّ قوات الأمن أجبرت الأهالي على نبش رفات القتلى الذين دُفنوا في الحدائق وإعادة دفنهم في المقابر».

ندفن الشهداء في الحدائق. نزرع فيها الشهداء لتزهر ورداً. في كل وردةٍ نستنشق أنفاس الشهداء. كيف يكتسب المكان معنى مغايراً: أندفن أبناءنا في الحدائق؟ لأنّ الوطن مقبرة كبرى، ندفن الشهداء أينما كان وكيفما اتفق. الموتى في سورية ليسوا حكراً على المقابر. حدائقنا مقابرنا، مقابرنا حدائقنا. كلا. تكتسب الحدائق معنى مغايراً. يحيا شهداؤنا في الحدائق. يحيا شهداؤنا في المقابر. ليس الوطن حديقة الطاغية. ليس للطغاة حدائق. للطغاة المقابر.

يسقط المجاز في حدائق سورية. لا تخدعنا اللغة هنا. من معرّة النعمان يأتينا صوت أبو العلاء متنبئاً: «خفّف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد». في حدائق حماة ودير الزور نرى طيف شهداء المعرة يرددون بأسى: «خفف الوطء». يسقط المجاز. نمشي في الحدائق مرتاعين. في كل زاوية نشتمّ رائحة الدماء. يكتسب المكان معنى مغايراً.

نذكر المفارقة الأخرى: تحوّلت المدارس إلى معتقلات. نقول المدارس كالحدائق: يراها الطغاة مقابر ومعتقلات. يحاول الطغاة سرقة كل الأماكن والمعاني. نمشي في الحدائق مرتاعين. ما الذي نفعله هنا؟ ما الذي يفعله العشاق هنا؟ كيف سيلهو أطفالنا هنا؟!

يجيبنا الشهداء. نحن شقائق النعمان. سقط المجاز. داس الفيلة الحدائق فأزهرت شقائق النعمان. نحن من يعطي المعنى للحدائق، وللتاريخ، ولكل الأماكن. لأن المعنى ليس أسير الطغاة. يعطي الثوار معنى آخر: يأسر المعتقلون السجانين في المدارس. يعلّم الأحرار في المدارس سجّانيهم معنى الحرية. واللغة تدهش القارئ. لا تخدعنا اللغة. شهداؤنا شقائق النعمان، ورود الحرية. لكل مكان معنى مغاير، ولكل حدث، ولكل اسم. ونحن نستطيع أن نقرر أي المعاني نختار. وقد اخترنا: الوطن حديقة.

يرى الثوّار وطنهم حديقةً يروونها بدمائهم، يبقى فيها دم الشهداء عروة وثقى توحّدنا: لا أبد. أما الطغاة فلا ورود لهم. تذكّر، كلّما شممت عبير وردة، أنّ بعض الأمهات قد دفنّ أبناءهنّ في الحدائق. لم نجد وقتاً للقبلة الأخيرة. كان الدم يسيل والناس صيام. في شهر رمضان من عام 2011، دفنّا أبناءنا في الحدائق. اقتحم الجيش السوري مدينتي حماة ودير الزور المسالمتين. قال الجيش: أولادكم ليسوا لكم. لا وقت للوداع. والمدينة كلها مقبرة. يموت الشهداء وندفنهم في الحدائق. بعض الأمهات لم يودّعن أبناءهن، في حماة ودير الزور. قيل لهم: أبناؤكم دُفنوا في الحدائق. اذهبن إلى الحدائق. ابحثن في الأماكن التي كانوا يلهون فيها عندما كانوا صغاراً. اذهبن إلى الحدائق. في الممرات السرية التي ربما التقوا فيها بأجمل النساء. اذهبن إلى الحدائق. قرب المقاعد التي ربما ارتاحوا عليها، يتأملون الورود، هرباً من صخب المدينة. اذهبن إلى

الحدائق. يقول الثوّار: لا أعذار لدينا. سنذهب إلى الحدائق. في الحدائق زرعنا أبناءكن ورداً، لتزهر شقائق النعمان. هكذا تصبح الورود رمزاً لحريتنا، والوطن حديقة. لا أعذار نقدّمها لأمهات الشهداء. كل الحدائق للشهداء. لا أعذار. سنأخذ أبناءنا إلى الحدائق ليتعلّموا المحبة. سنأخذ العشاق إلى الحدائق لتزيد المحبة. سنزور الحدائق لنهرب من صخب المدينة، ونستمع للشهداء يبشرون بالمحبة. وسنبقى نقدّم الورود لأفراد الجيش، ولمن نعشقهم، وللمرضى والأصحاء، ولمن ينجحون ومن يفشلون، ولكل زائر ومقيم. وسنذكر أننا، في دير الزور وحماة، دفنّا أحبابنا في الحدائق.

ندفن الشهداء في الحدائق، فالحدائق رمز لسلميّتنا.

نرى الوطن حديقة، ويراه الطاغية مقبرة.

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»:

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفييه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.
11. لم تنته الحكاية بعد، رؤى الإبراهيمي.
12. إكثار القليل، دارا عبد الله.

بدعم من المنظمة الأورو ـ متوسطية لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان:

13. رسائل من سورية، وجدان ناصيف.
14. يوميات وقصائد، علي جازو.
15. انسَ دمشق، عمر يوسف سليمان.

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

16. ما تبقّى من حياة، سهى زكريا.
17. لا تغمض عينيك!، د. حسّان عبّاس.
18. الدرب مسامير، منار سهران شلهوب.
19. قنديل أم هاشم المفقود، عدي الزعبي.